قال محمد بن الطيب القادري عندما ترجم له في كتابه: «نشر المثاني»[١].

دخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه فسمعته ينشد هذه الأبيات ولا يفقه منه الكلام إلاّ بمشقة:

سلام على أهل الحمى حيث ما حلوا ... هنيئاً لهم يا حبذا ما به حلوا
لهم أظهر المولى شموس بهائه ... فيا ليت خدي في التراب لهم نعل
متى يا عُريب الحي يأتي بشيركم ... فتبهّج الدنيا ويجتمع الشمل
صلوني على ما بي فإني لوصلكم ... إذا لم أكن أهلاً فأنتم له أهل

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ج٤/١٩٠.

٣٦ ـ أبو القاسم الزياني

(ت ١٢٤٩هـ)

يؤرخ لحادث مهم بأبيات من الشعر وهو على حافة الموت

قال عنه العلاَّمة عبدالله گنون في كتابه: «ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة».

«هو أبو القاسم أو بَلْقاسِم كما كان يُوقِّعُ هو، على حدّ قولهم بَلحَرِت ونحوه، ابنُ أحمد ابن الفقيه الأستاذ المُقرىء النسَّابة أبي الحسن علي بن إبراهيم الزيَّاني... الوزير المؤرخ الدَّاهية...».

«... والزيَّاني بالزاي مُفَخَّمةً أو بالصاد المُشْمَمَة زاياً كلفْظ صِرَاط في قراءة حَمْزة ـ كما يقول الناصري ويكتبها هو كذلك وبتخفيف اليَاء ـ نِسبة إلى قبيلة زَيَان من أهل الأطلس المتوسط.

كان مقر جده هذا بقرية أركو قرب آدخسان وبِها قرأ عليه العلاَّمةُ اليُوسي القِراءاتِ السَّبْعَ، ثم نقله السلطان مولاي إسماعيل إلى حاضِرَته مَكْناس، وسَبَبُ ذلك أنَّه لما نَزَل بآدخسان واجتمع عليه الأشرافُ الذين بآزكو قال لهم: دُلُّوني على رجل فقه ودين يؤمّني في الصلوات فقالوا له: ليس بهذا الجبَل اتقى من سيدي علي بن إبراهيم، فأتوا به فكان إمامَه في المحَلّة[1] ولما قفَل أخذَه معه، قال حَفيدُه المترجَم: «فهذا سبب انتقال

(١) هي الجيش والمعسكر في اصطلاح المغاربة.

جدِّنا من آزكو إلى الحَضَر». وقد بقي هو وأولاده على هذه الحال إلى أن توفي بها، فانتقل ولده أحمد والد المترجم إلى فاس سنة ١١٣٩هـ عند وفاة السلطان فاستوطنها وَوُلِد له بها أبو القاسم سنة ١١٤٧هـ.

وقد نشأ في حِجْر والِده وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على شيوخها أحمد بن الطاهر الشَّرْقي وهو أول مَن أخذ عنه ومحمد بن الطيب القادري وعبد القادر بُو خريص، وعمر الفاسي ومحمد بن إبراهيم والتاوُدي بن سُودة ومحمد بَنّاني. إلاَّ أنَّه انقطع عن مجلس الفاسي بسبب شيْطنة التلاميذ حيث ذكروا له عنه أشياء كان يُتَّهَم بها، ولعلها مسائل الخط والجدول، وكانوا في نزهة فقال له الفقيه: «يا فلان، أرِنَا شيئاً مما تعلمه ولا نعلمه نحن»، قال وصمّم عليّ في ذلك فخجِلتُ منه وقلت: لم يتهيأ لي عمَلٌ الآن، فقال: «ولو ما خفَّ»، فقلت: لم يحضرني شيء الآن؛ فكان ذلك سبب انقطاعي عنه. ولازم محمد بن الحسن بناني ونسخ حاشيته على الزرقاني فكان يُطالِعُها ويحضر مجلس ابن إبراهيم، قال: فكان يشمَئِزُّ من أبحاثها وذلك يدل على أنَّه كان يورد تلك الأبحاث على الشيخ فِعْلَ شياطين التلاميذ ويدل بالأحرى هو والواقعة التي قبله على نجابة الزَّيَّاني وحُسْن تأتيه لِلأشياء منذ صِغَره.

ومن دون علم الجَدْوَل وغيره من العلوم السِّريَّة التي ربما كان أخذها عن والده، فإنَّ ما درسه على هؤلاء العلماء هو الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وعلى كل حال فإنَّ التاريخ والنَّسَب والجغرافية التي هي بِضاعَتُه المُنْتقَاة لم تكن مما درسه في القرويين ولا مما أخذه عن شيوخها المذكورين؛ وإنَّما سَرَتْ عَدْواها إليه من جده علي بن إبراهيم المذكور آنفاً، وقد كان كما قال هو عنه آنفاً: عَشْريّاً نَسَّابةً أخْبارِيّاً لم يكن في وقته مَن يلحقه في النسب، واليُوسِي نفسُه يقول في حقه: «عنه أخذتُ عَمُود أجدادي إلى يُوسِي أبي القَبيل لأنَّه كان نسَّابة الوقت».

«... وإذاً فيكون تَخرُّجه من مدرستَيْن: مدرسةِ القرويين وقد قرأ فيها علوم الدين واللغة؛ ومدرسةِ العائلة وقد قرأ فيها التاريخ والنسب وسائر العلوم الخَفِيَّة.

ولما أَشبَعَ نَهْمتَه من المدرستين أُتِيح له سبب آخر ليدخل مدرسة جديدة أوسعَ دائرة وأعظم مفعولاً من كل ما عداها وهي مدرسة السيَاحة. فإنَّ الفِتَن التي توالَتْ على المغرب منذ وفاة السلطان إسماعيل، واضطراب حبل الأمن وعدم استقرار الأحوال على ما عُهِد من قبل، جعلت والد مترجمنا يفكر في الرحلة بُغْيَةَ المُجاورة والاستقرار نهائياً في المدينة المنورة.

وقد نفَّذ هذه الفكرة في عام ١١٦٩هـ وكان عُمرُ ولده المترجم ٢٣ سنة، فباع، كما يقول ولده في سذاجة، دارَيْن كانتا له بفاس وكتُباً لوالده الأستاذ علي وجمع من ذلك ما فيه بَلاغ ومَقْنَع. وكان المترجم يساعد والده ويأخذ بيده في تدبير أمور السفر وهو على طَيْشِه وحِدَّتِه كان محبوباً من والدَيْه لأنَّه لم يبق لهما غيره.

ولمَّا بلغوا مصر كان مرادهم أن يصحبوا ركب الحاج؛ إلاَّ أنَّ بعضهم أشار على والده بركوب البحر لكونه أقرب مسافة وأقل مشقة، واشترى له سِلْعَة بِقَصد التجارة، ففي مَرْسى اليَنْبُع تكسَّر المركب وضاعت السلعة وتلِفَت الأسباب وحَمِدُوا الله على عِتْق رقابهم، وكانت هذه النكبة هي أُولى النَّكبات السبع التي أصابت المترجم وأثرت في حياته تأثيراً عظيماً، وهناك أخرجت والدتُه من حزامها ٣٠٠ دينار، لم يكن لهم بها علم، وإنَّما كانت ادَّخَرتْها لمثل هذا اليوم؛ فمنها اكتروا لِجدَّة ومَكة وأقاموا الفَرْضَ كما يجب وتوجهوا إلى المدينة بقصد الزيارة فقط؛ لأنَّ المجاورة مع ذهاب البضاعة التي كان مُعَوَّلُهم عليها أصبحت مستحيلة، فرجعوا إلى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الأسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعوها وتحصل فيها مبلغ ٦٠٠ ريال، فَبِها أصلحوا الأحوال واستعدوا للرجوع إلى المغرب حيث بلغهم خبرُ وفاة السلطان مولاي عبدالله وبيعة مولاي محمد.

وفي الإسكندرية لم يجدوا مَرْكباً قاصداً لأجل الحرب القائمة بين إسبانيا وفرنسا وبين الإنجليز المُسمَّاة: حربَ السّبْع سنوات، وكان القُرصان في نشاط عظيم فأكثروا مركباً إلى الكُرْنة (لِيكورن بإيطاليا) حيث أقاموا أربعة أشهر ثم توجهوا إلى مرسيليا ومنها لِبَرْشِلُونة فأقاموا بها حيث كان الفرنسيون

مُحاصِرين لجبَل طارق، وبعد رفع الحصار ذهبوا إلى تطوان ومن ثم إلى فاس فدخلوها وليس معهم إلاَّ سبعة مثاقيل.

كان قد مرَّ على خروجهم من فاس نحو الثلاث سنوات، رأى مُترجمُنا فيها كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس أحوال أمم كثيرة واستفاد معلومات مختلفة، لم يكن ليحصل عليها وهو مستقر بفاس، متردد بين دارهم والقرويين. وأعظمُ ما حصل عليه بالقاهرة في بيت صاحبهم التي كان نزولهم عنده هو تعلمه من ابن هذا الصاحب لمسائل من علم الرَّمْل والسِّيمِيا، أضافها إلى ما كان عنده من هذه العلوم السِّرية ورجع بذلك فَرِحاً مسروراً يقول لنفسه حجّاً مبروراً، وهاك عبارَته، في هذا الصدد:

«وفي إقامتنا بمصر كنتُ أجالس بالبيت ابنَ ذلك الصاحب، وأشاهدُ منه عجائب، كان له يد في علم الرمل وعلم السيميا، ومَن رأى تصوُّراتِه يحسب أنَّه من الأولياء، فشغفتُ بِفَنِّه واتخذته شَيْخاً ولازمتُه حتى ملكتُ لُبّه بالسَّخا، فجاد هو أيضاً بما عنده في الجَرِيب، وأفادني في أَمد قريب، وأوقفني على ما في علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الأسرار والعجائب، التي يبلغ المرء بها أعلى المراتب، وأطلعني على ما يلحق بها من الحِيَل التي يستعملها المُشَعْوذُون، ومن بَخرِها يَستَمِدُّون فعُدت بذلك مسروراً، وقلت: حَجّاً مبروراً».

ولمَّا استقروا بفاس عاد المترجم إلى القراءة كما كان ثُمَّ سأل عن رفقائه في الأُنس والطَّلَب كأحمد بن ناصر الغياثي، والغَزَّال، وابن الوزَّان، وسُكيرج، وابن عُثمان، ومحمد بن الشاهد، وسعيد الشَّلَيِّح الجُزُولي؛ فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان، وكان بينه وبين هذا الأخير أعني: الشُّلَيح مودة كبيرة، إذ طالما عكفا على المُطالعة معاً وسَرْد كتب التاريخ التي كان للشليح ولعٌ كبير بها، فلما بلغه خبرُه وما صار إليه أمره عند السلطان سيدي محمد بن عبدالله شَرِهَت نفسُه لِلْحَاق به وتعلق هو أيضاً بالخدمة؛ ولم يُجْدِ نُصحُ والده له ولا نَهْيهُ عن ذلك شيئاً، وهكذا أصبح أبو القاسم الزَّيَّاني كاتباً في البلاط العلوي من رجال الدولة المعدودين.

مؤلفاتـه:

وأعظمها: تاريخه الكبير الذي سماه: «الترجمان المُعرِب عن دول المشرق والمغرب» وهو تاريخ عام أراد أن يقف به في صف المؤرخين الكبار كابن خلدون وابن الأثير وابن جرير الطبري وغيرهم. وقد جعله من بدء الخليقة إلى نهاية عام ١٢٢٨هـ.

ثاني كتبه في الأهمية رحلتُه المسماة: «التُّرجمانة الكبرى التي جمعت أمصار المعمور كلها براً وبحراً» في مجلد واسمُها كاف في معرفتها فهي جغرافية في الأعمّ الغالب، ولكنها تحتوي على فوائد تاريخية وأدبية، وتراجمَ مختلفة وأعظمُها ترجمة الكاتب نفسه وغير ذلك مما جعلها غيرَ ذات خطة مستقلة ولا موحَّدة الموضوع كما يقول هو عنها بعد سرد برنامجها الجغرافي: «وفي كل مقام منها مقال، وفي كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتأويلات تفسيرية، وأحاديث نبويَّة، وفتاوي فقهية، ومواعظ صوفية، وحجج قطعية، وأدلة معقولية، وشواهد شعرية، وضوابط معنوية، وأسامي لغوية، ونوادر سَروجيَّة[1]، وقصائد عالية، وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والإنجيل والفرقان، للرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس من عَبَدة النيران».

ثالث كتبه المهمة: تاريخ الدولة العلوية المسمى: «البستان الظريف في دولة أولاد مولانا عليّ الشريف ألّفه لما لم يجد للدولة تاريخاً مستقلاً وكان لا زال تاريخ أكنسوس لم يكتب، فإنَّ هذا منه اقتبس وعلى منواله نسج وكذا من بعده بالطبع، وهاك بقية أسماء كتبه باختصار:

١ ـ «ألفية السلوك في وفيات الملوك»، أرجوزة مرموزة التواريخ بحساب الجمل وشرحها.

---

(١) نسبة إلى أبي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية المعروف.

٢ ـ «الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب»، وهو مستمد من الفصول التي كتبها في الترجمان خاصة بهذا الموضوع.

٣ ـ رسالة في سياسة الملك سماها: «السلوك فيما يجب على الملوك».

٤ ـ رسالة دينية سماها: (الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة).

٥ ـ رحلة الحذاق لمشاهدة الآفاق لخصها من رحلته الكبرى.

٦ ـ جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين وأشياخ مولانا سليمان. وهي برنامج لأشياخ هذا السلطان[1].

٧ ـ إباحة الأدباء والنحاة الجمع بين الأخوات الثلاث، رحلة ثالثة.

٨ ـ «كشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار».

٩ ـ «تحفة الإخوان والأوليا، في صنعة السيميا».

١٠ ـ كشف أسرار المحتالين الأشقياء، الذين يزعمون علم الكيميا وتسمى هاتان الرسالتان أيضاً رشف الحميا ونصيحة المغترين... إلخ.

١١ ـ «حلية الأدباء والكتاب في مدح هذا الكتاب»، يعني: الترجمان، وقد ضمَّ هذه الرسالة لآخر الترجمان.

١٢ ـ ديوان شعر جامع لأنظامه في الأغراض المختلفة.

وعلَى كُلّ فَالزَّيَّاني من أولئك الكُتَّاب القلائل الذين تَظهر شخْصِيَّتُهم القويةُ بين سطور كتاباتهم عاريةً من كل تصنُّع، بريئةً من كل تَزيُّد. وإذا كان يُبالِغُ بعضَ الأحيان في ادّعاءاتِه لنفسه واتهاماته لغيره فإنَّما ذلك من سذَاجَتِه واغتراره بظواهر الأشياء، وربما كان لِعدم تثقُّف قلَمِه وخشونة عبارته، ولو كان مُهذَّبَ حوَاشِي الكلام لما وَقع في كثير من تلك الهفوات. ومما يدل على سلامة صدره وأنَّ تلك الحملات التي كان يحمِلُها على كثير من أهل عصره إنَّما هي فَوراتٌ نفْسِيَّة لا تلبَثُ أن تخبُوَ ويذهب أثرها إلى الأبد، ما تجده في رحلته التُّرجمانة بصدَد الشيخ حمدون بن الحاج، فتارةً يمدحه

(١) طبعت بتحقيق عبدالمجيد خيالي.

ويُحَلِّيه بأغلى وأحسن الحِلَى، وتارةً يقع فيه ويُضْلِيه من انتقاده ناراً حامية.

وكان يسجل الحوادث المهمة في شعره ويرصد لها قلمه تأييداً وإنكاراً من غير خوف ولا وجل شأن أصحاب النفوس الكبار، ودوي الغيرة من أهل الأخطار، حتى في ساعة الاحتضار.

فمما قاله عند حضور الموت وقد بلغه عزل الوالي على فاس الطيب الوديني بأمر من السلطان المولى عبدالرحمٰن، فأنشد هذه الأبيات عند حضور الممات وكان قد جاوز المئة:

يا مالكاً لا يرى عزْل الولاة ولو ... جاروا ولا يقبلُ الشكوى بوَالِيه
فليس هذا بقانون الملوك ولا ... وقَع في غربنا ولا في شَرْقِيه
اخفِض جناحَك للشّكاة والقهم ... واسمع كلامهم واعمَل بما فيه
لا تعتمد في مظالم على حاجِب ... ولا وزير فوَالِي الجَوْر يَرشيه
قد جاءَ في الذكر لَعْنُ الظالمين غداً ... وفي الحديث الذي تَتْلو وتَرْويه
وأنتَ وليتَ هذا العَبْدَ مُفترِساً ... سبْعَ سِنين وكلّ الناس تَشكيه
يأكُل أموالهم يهتِكُ أعراضهم ... يزنِي جُهاراً ولا يخَافُ بَاريه
فكلُّ أفعاله تُكتَب في صحفٍ ... عليك يا بن رسول الله فاذْرِيه
وفي المَعاد تَرى الصُحفَ مُنشرَةً ... إليك بالذي كان يجبي ويَخْبِيه
فما تقولُ وما عذرك يا ملكا ... مع الإلٰه الذي ولاَّك تَكفيه
فانظر لنفسك أَوْدَعْها على غَرَر ... فالموتُ يأتي على كل ويُفْنيه
والله ما قلتُ ذا بُغضاً ولا فنداً ... إلاَّ نصيحتَكم لله فاقْصِيه
إن لم تُرِدْ عَزْ لَهُ فالله يُهلِكُه ... عمَّا قريب وربُّ البيت يحميه
إذ ليس لي ناقةٌ في ذا ولا جَمَلٌ ... فسَلْ تجِدْ صِدْقَ ما قلتُ لكم فِيه

نعم يقول هذا الزيَّاني الشُجاع القَوِيُّ النفس المَخْشِي البادِرَة وهو في سن المائة والواحد على حافَة الموت، فما أعجبَ أمره وأشدَّ أَسْرَه!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثالث: من تعلم العلم أو علمه من علماء العصر الحديث ولو في ساعة الاحتضار

٣٧ ـ أبو المكارم عبدالكبير الكتاني

(ت ١٣٣٣هـ)

مات وهو يكتب القرآن في اللوح

(ترجمته بقلم ولده عبدالحي الكتاني) في (فهرس الفهارس)[١].

«هو عبدالكبير بن شيخه الشيخ أبي المفاخر محمد بن عبدالكبير الإدريسي المعروف بالكتاني، شيخ السنَّة وإمامها إمام الهداية ومقيمها، الأستاذ الأكبر العارف بالله وبرسوله، والدي ومربي روحي أبو المكارم قدَّس الله أسراره وعطَّر مزاره. ولد بفاس سنة ١٢٦٨هـ، ورُبي في كنف والده الإمام محفوفاً بعنايته، مشمولاً برعايته حتى شبَّ واكتهل.

نشأ في جلال الدين يرتضعُ العلا فجاء تقًى يختالُ في الرتب الشم

روى سماعاً وحضوراً عن أعلام فاس كالأخوين عمر وأبي عيسى المهدي ابني الطالب ابن سودة، كلاهما عن أبي محمد عبدالسلام الأزمي عن الشيخ التاودي بن سودة، كما أخذ عن غيرهما ممن تضمنته فهارسه كصهره وابن عمه أبي المواهب جعفر بن إدريس الكتاني وأبي عبدالله

(١) ج٢/٧٤٣.

محمد بن المدني گنون وشيخهما أبي العباس أحمد بن أحمد بناني، وأبي عبدالله محمد بن إبراهيم السلوي والوزير صالح بن المعطي التادلي، والقاضي أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن العلوي، وأبي عيسى المهدي بن محمد بن حمدون بن الحاج، وأبي عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن التاودي بن سودة، وأبي عبدالله محمد المقري المدعو الزمخشري، وأبي العباس أحمد العلمي السريفي. وسمع المسلسلات الرضوية على أبي عبدالله محمد بن علي الحبشي الإسكندري بفاس وغيرهم، وحج عام ١٢٨٦هـ، ودخل تونس وطرابلس ولقي جماعة من الأعلام ثم حجَّ عام ١٢٩٥هـ، وروى هناك سماعاً وإجازة عن محدث الحجاز الشيخ عبدالغني بن أبي سعيد الدهلوي المدني، وتلميذه أبي الحسن علي بن ظاهر الوتري المدني، كلاهما بها، وسمع على الوتري جميع الشفا وهو زميله على الجمل بين مكة والمدينة في عشرة أيام، وسمع جميعها عليه مرة أخرى ثانية في زرهون في ثلاثة أيام.

وكان حلساً من أحلاس العلماء الصالحين، بيته وزاويته موطناً لهم، ألفوه وقصدوه من المشارق والمغارب، محكماً للسنَّة في أحواله أقوالاً وأعمالاً حركة وسكوناً، حتى تجسدت به، لا مذهب له ولا طريقة دون الكتاب والسنَّة، كتابه المصحف. مات وهو يكتب القرآن في اللوح مع أنَّه كان شديد الحفظ له من صغره، وديوانه الصحيح، ختمه نحو الخمسين مرة ما بين قراءته له على المشايخ وإسماع له، وكان يعرفه معرفة جيدة يستحضر نوادره ومخبآته، ويستحضر «فتح الباري» استحضاراً عظيماً، وأتم سماعَ وإسماعَ الكتب الستة، ولم يبق بفاس في عصره ولا بالمغرب مَن تمَّ له ذلك، يعرف النَّاس له منةَ إحياء السنَّة وكتبها بفاس والقيامَ عليها قيام النقاد المهرة، يستحضر أحاديث الكتب الستّة كأصابع يده، وإنَّ أنس فلا أنس أني كنت مرة أسمع عليه كتاب: «المجالس المكية» لأبي حفص الميانشي المكي من أصل عتيق بخط الحافظ أبي العلاء العراقي، فوصلنا فيه إلى حديث عثمان في كيفية وضوء النبيّ ﷺ، فمع عزو الميانشي له إلى مسلم ذكر فيه المسح على الأذنين، فقال لنا الشيخ الوالد: مسح الأذنين في

الوضوء لا يوجد في الصحيحين من حديث عثمان ولا غيره، فقمت بعد ذلك على ساق في مراجعة نسخ صحيح مسلم العتيقة المسموعة وغيرها من المستخرجات والمصنفات الأثرية، فلم أجد لذلك ذكراً فيها، فأيقنت بحفظ الرجل وقوة استحضاره وخوضه في السنَّة.

وله رضي الله عنه في الشؤون النبويَّة عدة مؤلفات كالخضاب والشيب والوفرة، وحواشي على الصحيح والشمائل، وجزء في المبشرين بالجنة من الصحابة أوصلهم إلى نحو المائتين، وكتاب في حديث: «**كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد**». وله مبرد الصوارم والأسنَّة في الذب عن السنَّة، كتاب عظيم القيمة واسع البحث والاطلاع، وله أيضاً ختم الصحيح، وختم الشمائل، وختم المواهب، وشرح حديث النية، وتأليف في آل البيت في مجلد نفيس وعدة رسائل تخرج في عدة مجلدات أكثرها في الحديث والتصوُّف والفقه.

وهو أجمع مَن رأيناه وأخذنا عنه لخصال الخير والمثابرة على العلم والعمل والتمسك بالسنَّة في جميع الأحوال وتطلب معرفتها والقيام عليها قيام أعلام الرجال، تذكّر الله رؤيته وتؤثر في أقسى القلوب موعظته، مع سعة الأخلاق التي عمَّ خبرها وأثرها الآفاق، وخضعت له الرقاب ووقفت ببابه الصدور من أهل القرن الماضي، وهذا مع الانسلاخ التام عن الدعوى والبعد الكلي عن إثبات شيء لنفسه مع التنزل للعباد في التذكير والتعليم، يخاطب كل طائفة على حسب فهمها وإدراكها، ويفيد في صفة المستفيد، ثم يزيد في صفة المستزيد، مع حقارة الدنيا في عينه، وقيام جليسه بعظمة الله وقد استولت عليه.

قال عنه نادرة العصر الشيخ أبو المحاسن يوسف النبهاني في كتابه: «جامع كرامات الأولياء»: «هو الإمام العلاَّمة المحدث المحقق العارف بالله صاحب التآليف الكثيرة النافعة ولا سيما علم الحديث، وقد استجزته فأجازني من فاس كتابة فسررت بإجازته، وأهداني معه مؤلفاً نافعاً في شيب رسول الله ﷺ وخضابه، وهو فريد في بابه مشتمل على فرائد الفوائد،

جزاه الله خيراً ونفعني والمسلمين ببركاته». اهـ. وقال عنه شامة العصر أبو عبدالله محمد بن جعفر الكتاني في ترجمته من كتابه الكبير في البيت الكتاني: «لما توفي والده اتخذه أصحابه مكانه في زاويتهم يجتمعون عليه كما كانوا يجتمعون على والده، وهو مع ذلك في الترقي والزيادة خالياً عن الدعوى متبرئاً منها عاكفاً على مطالعة كتب القوم ومجالسة الصالحين والعلماء العاملين مذكراً لهم مستفيداً منهم زواراً لهم، مع المحبة التامة لآل البيت والتعظيم لهم، وأمّا محبته في الجانب النبوي العظيم فلا تسأل عنها، فاق فيها جميع أهل عصره فيما رأينا وأوانِه، وكثيراً ما كنت أذهب معه إلى زرهون فتمر بنا هناك أيام يفخر الزمان بها علماً ومذاكرة وذكراً وتوجهاً. وأمّا أخلاقه مع الصديق والعدو والمحب والمبغض فلا تسأل عنها، لا يلقى أحداً إلاّ بغاية البشاشة ونهاية اللطف مع الإكرام التام واللين المفرط العام، ولا يذكر أحداً قط بغيبة ولا يكاد يذكر في مجلسه أحد بذلك أيضاً، بل مجالسه كلها مجالس ذكر وتذكير وعلم وتعليم ووعظ ونصح لا تكاد تخرج عن ذلك، وبالجملة فهو وحيد عصره وفريد أوانه ودهره، وقد استجزته عند هجرتي من فاس إلى المدينة في طريقتهم الكتانية فأجازني». اهـ. باختصار كبير.

وعنه أخذنا وبه تربينا، فله علينا في هذا الباب المنة العظمى والمرتبة الزلفى، جزاه الله خير الجزاء. وقد خرجت له عدة فهارس وكتبت عنه عدة إجازات ذكرت في حروفها: (انظر: أعذب الموارد في الطرق التي أجيز بالتسليك عليها الشيخ الوالد، وفتح القدير في أسانيد والدي الشيخ عبدالكبير، ومنية القاصد في أسانيد الشيخ الوالد، والمسلسلات)، أجازني غير مرة وخلفني وحباني، وبكل ما عنده هداني. انتقل إلى جوار ربه ضحى يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٣٣هـ، ودفن بزاوية والده الكتانية من فاس رحمه الله ورضي عنه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

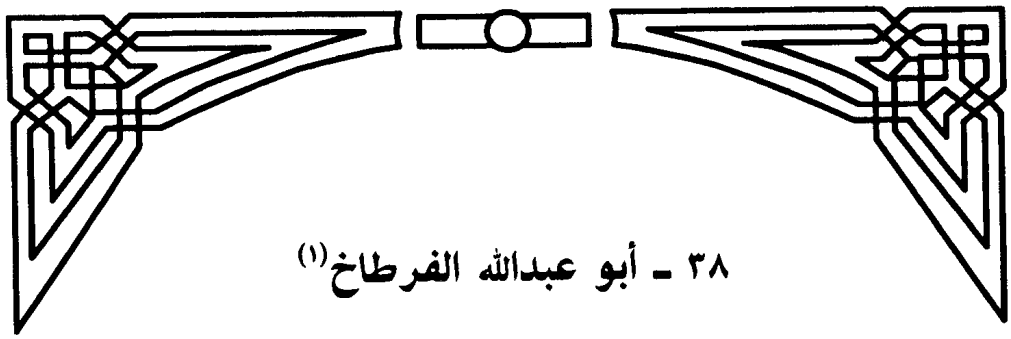

٣٨ ـ أبو عبدالله الفرطاخ[١]

(ت ١٣٦٩هـ)

☚ قرأ عليه ولده من «فتح الباري» ـــ باب ذهاب الصالحين ـــ ففاضت روحه بين جدران مكتبته

ترجم له الدكتور سعيد أعراب[٢] ترجمة رائقة فقال:

«هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد الفرطاخ، يتصل نسبه بالعارف الرباني أبي عبدالله محمد ـ فتحا ـ بن الحسن الجناتي الحياني ـ دفين جبل (تِسًا) ـ قرب وادي اللبن بقبيلة الحياينة ـ حوز فاس، ومن هناك انتقل أسلافه إلى مدشر الدردارة بقبيلة الأخماس، وأقاموا ثمة برهة من الزمن، ثم نزحوا إلى الدردار ـ ببني ليث، وبعدها إلى ابن رثن، وبها موضع يسمى ـ إلى الآن ـ بخربة الحياني، ثم نأوا عنها إلى فج بني بدر ومسيعد، واستوطنوا هناك وتناسلوا، وكان فيهم علماء وقراء متنسكون، ومن بينهم العالم المشتهر بالفرطاخ وهو اللقب الذي التصق بهم منذ أحقاب السنين، ثم انتقلوا إلى جبل الحبيب ـ حيث نزلوا مدشر الخروب، ولم يلبث أن انتقل والد المترجم ـ بالأهل والأولاد ـ إلى مدينة تطوان، واستقرَّ بها نهائياً، وكان وصولهم إليها في شهر رمضان عام تسعة وتسعين ومائتين

---

(١) ترجم لنفسه في «فهرسة شيوخه» وهي عندي بخطه.

(٢) دعوة الحق ـ عدد: ٢٣٧ ـ ص: ٣٦ ـ ٣٩ ـ سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

وألف (١٢٩٩هـ) ـ حيث كان سكناهم بزنقة المقدم ـ درب سلامة ـ قرب جامع لوقش، وسن المترجم وقتئذٍ نحو عام ونصف عام، ويشير المترجم إلى هنا ـ في بعض قصائده.

ولد أبو عبدالله الفرطاخ بمدشر الخروب ـ قبيلة جبل حبيب ـ في حدود أواخر ربيع الثاني عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٨هـ)، وانتقل به والده إلى تطوان ـ وهو ابن عام ونصف عام ـ كما أسلفنا، وتعلَّم في الكُتَّاب، ولكنه لم يكد يصل الحادية عشرة حتى توفيت والدته، وهو سابع سبعة إخوة ـ سبقوا أمهم ـ إلاَّ هو، لأمر يعلمه الله؟ فتزوج والده، وعانى من زوجة أبيه ما عانى؛ مما اضطره إلى الخروج من الكُتَّاب، فأخذه والده معه إلىٰ الدكان الذي كان يعمل به ـ وكانت مهنته الحدادة، فعالج نفخ الكير، وضرب الحديد ـ ردحاً من الزمن، حتى اتقن صنعة الحدادة، واستقلَّ بنفسه، ولكنه كان يشعر دائماً ـ وكأنَّ شيئاً يدفعه إلى الخروج من تطوان، فانتقل إلى طنجة ـ وجعل يعمل مع المعلم حسين أبي طاهر السوسي ـ وكان من مهرة الحدادين، وقد توسم في المترجم، رغبة في الطلب، وحنيناً متأججاً إلى الدراسة والتعلم، فشجعه على الخروج إلى البادية لحفظ كتاب الله العزيز، وكان يمده من حين لآخر بكل ما يحتاج إليه، فالتحق بمدشر الخروب بقبيلة جبل الحبيب مسقط رأسه، والمقر الأول لأبيه وجده، ومكث هناك مدة حفظ فيها القرآن الكريم، ثم خرج إلى قبيلة بني بدر وفيها جماعة من أبناء عمومته، فقرأ على بعض الشيوخ المختصين في علوم القرآن، وأتقن رسمه وضبطه، وحفظ بعض الروايات، ثم دفعته نفسه الطموح إلى تعلم العلم.

قلنا: إنَّ المترجم لم يتعلم إلاَّ بعد أن كبر، وكان له من العمر نحو (١٧) سنة، ومن شيوخه في العلم:

١ ـ الفقيه الأندلسي، أخذ عنه بجبل الحبيب (جبيلة)، ويقال: إنَّه أقرأ مع الطلبة نحو مائة سلكة في العربية.

٢ ـ ثم التحق بالفقيه ابن يرمق بسماتة، وأدركه شيخاً كبيراً، وكان

من العلماء، العاملين، له مؤلف في العربية، أسماه بعض منافسيه بـ: (خرْبَقُ)، لابن يَرْمَقُ، وكانت له اليد الطولى في علم الجدول.

٣ ـ وأنهى دراسته في العربية على عالم نحوي كبير ـ بمدشر القب بقبيلة أغزاوة ـ لم يحضرني اسمه الآن.

ثم عاد المترجم إلى تطوان بعد غياب طويل، فصادف رجوع الفقيهين:

٤ ـ ٥ ـ أبوي العباس: أحمد بن الطاهر الزواقي، وأحمد الرهوني ـ من فاس، فجلس في دروسهما بضعة أشهر، وكانت الحرب قائمة بين أهالي تطوان وقبائل الجبل، بإيعاز من الاستعمار وأذنابه، عملا بمبدأ (فرق تسد).

ثم شدَّ الرحال إلى فاس عاصمة العلم، فأخذ عن جملة من علمائها ومشايخها، وكان في مقدمة مَن سمع منهم:

٦ ـ أبو العباس أحمد بن الخياط الزكّاري وهو أول شيخ جلس بين يديه بفاس، وكان من الفقهاء المحدثين، والمفسرين المحققين، إلى زهد وورع، وتواضع ودماثة أخلاق، له مؤلفات في التوحيد، والفقه، والحديث، والقراءات. (ت ١٣٤٣هـ) ذكره المترجم في الذيل، وله فيه بعض قصائد.

٧ ـ ومن شيوخه بفاس ـ وهو عمدته ـ أبو عبدالله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، محدث مكثر، ضليع في علوم الحديث وفنونه، بصير بفقهه ومعانيه، دؤوب على تدريسه وسرده، حسن النطق به، عارف بتراجم رجاله، مؤرخ، مطلع على أخبار صلحاء وعلماء فاس، وطبقات علماء المذهب، رحل إلى الحجاز غير مرة، وجاور بالمدينة المنورة مدة، ثم سكن دمشق إلى أواخر حياته، ثم عاد إلى المغرب فتوفّى بفاس سنة (١٣٤٥هـ) وله نحو ٦٠ كتاباً، أكثرها في الحديث وعلومه، وقد تأثر به المترجم أيما تأثر، ولازمه في الحل والترحال، وظلَّ في خدمته ـ يفيد من فيض علمه ـ إلى أن فرَّق الموت بينهما، ذكره في الذيل وله فيه القصائد الطوال، ألَّف كتاباً في سيرته ومناقبه ـ لم يكمله ـ.

٨ ـ أبو عبدالله محمد ـ فتحا ـ بن قاسم القادري، الإمام النحوي النقاد، العلم الذي تتضاءل له الأوطاد، سلالة الأفاضل الأعلام، آية الله في التحرير والتقرير، إلى زهد وعفاف، وقناعة ورضي بالكفاف، طلق الدنيا بالبتات، ووأدها وأد البنات. (ت١٣٣١هـ).

له حاشية على شرح الشيخ الطيب بن كيران على توحيد المرشد المعين في مجلدين، دلت على اطلاع واسع، وتحرير وتحقيق.

٩ ـ أبو العباس أحمد بن الجيلالي الأمغاري، شيخ فقهاء الوقت، فمارس المعقول والمنقول، بقية العلماء العاملين، ولسان المناطقة المتكلمين في آخرين.

❑ رحلاته:

رحل المترجم إلى بلاد الحجاز ثلاث رحلات:

١ ـ أولاها ـ وكانت صحبة شيخه أبي عبدالله محمد بن جعفر الكتاني ـ في حدود سنة (١٣٢٥هـ) وقضى هناك نحو سنة أدى خلالها مناسك الحج، وكانت له اتصالات بشيوخ العلم ورجال الحديث، ثم انتقل رفقة شيخه الكتاني إلى بلاد الشام، فزار في بيروت الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، وبعد تبادل الشيخين الإجازات والمناولات، قال الشيخ الكتاني للنبهاني: ادع لأولادي هؤلاء: محمد الزمزمي، ومحمد المكي ـ وهما ولداي من صلبي، ومحمد الفرطاخ ـ وهو ولدي الروحي، فضمهم إليه، وأجازهم جميعاً.

ثم عاد المترجم إلى المغرب في حدود أواخر سنة (١٣٢٦هـ)، فتزوج بتطوان ولم يمض على زواجه إلاّ نحو عامين حتى توفيت الزوجة، فتزوج أختها ـ وولد له معهما ولدان: محمد الزمزمي، ومحمد المكي.

٢ ـ ثم رحل إلى الحجاز ـ للمرة الثانية سنة (١٣٣١هـ) ـ واصطحب معه الأهل والأولاد، فالتحق بشيخه محمد بن جعفر الكتاني ـ وكان مجاوراً بالمدينة المنورة ـ ولم يلبث أن توفيت زوجته الثانية ثم الولدان، فسافر مع

السيد محمد الزمزمي ـ ولد الشيخ الكتاني إلى القاهرة ـ بقصد الاطلاع على أعمال الطبع في «الرسالة المستطرفة» للشيخ، فاهتبلها المترجم فرصة لزيارة الأزهر ومديره الشيخ الأكبر مصطفى المراغي، وكان على صلة بالشيخ الكتاني، جرت بينهما مراسلات في عدة مناسبات.

وفي طريق عودته عرج المترجم على الينبع، فقضى هناك مدة، تولى خلالها التدريس ببعض المؤسسات، وقد اختبره مشايخ الينبع، فاقترحوا عليه درساً في تفسير سورة البقرة، فألقى الدرس على المشايخ، وكان موفقاً كل التوفيق، وكان أستاذه الكتاني ـ يناديه بشيخ الينبع ـ مباسطة له.

ثم عاد إلى المدينة، فجاور مع شيخه ـ إلى أن قدم عليهم المولى عبدالحفيظ ـ وكان قد أدى فريضة الحج، فطلب من الشيخ أن يأذن للمترجم في العودة معه إلى المغرب ليعلم أولاده، فعاد ونزل طنجة في حدود سنة (١٣٣٣هـ)، وجعل يعلم أولاده ـ وفيهم المولى يونس ـ الذي تولى ـ بعد ـ مناصب عليا في الدولة.

وفي هذه الأثناء، تزوج المترجم ـ للمرة الثالثة، وكان زواجه بكريمة الحاج عبدالسلام العمارتي ـ وهي من أسرة ريفية، استوطنت طنجة قديماً، وأكثر أولاد المترجم من هذه الزوجة، وقد أنجب عدة أولاد ذكور، تعلموا على والدهم، ثم التحقوا بمدارس ومعاهد، وهم يعملون الآن في وظائف عمومية، وبعضهم يعمل في حقل التعليم الحر.

وقد قضى المترجم بطنجة بضع سنوات، تولى التدريس فيها ببعض المساجد والجوامع، منها: مسجد ابن ريسون، درس فيه العربية، والجامع الجديدة ـ وكان يدرس به موطأ مالك، ثم مسجد بوعبيد ـ وكان به خطيباً.

ثم عاد إلى تطوان، فاستقبلته بالأحضان، وكان سكناه بالسويقة، وهي الدار التي قضى فيها أكثر حياته، فتفرغ للتدريس، والتفَّ حوله أفواج الطلبة، فأقرأ بجامع القصبة ـ وكان به خطيباً ـ، وأقرأ بجامع المصمدي عدة فنون، ثم بالجامع الكبير ـ وكان يدرس به مختصر خليل ـ، ولمَّا وصل إلى باب الجهاد عزم على إقرائه مع الطلبة ـ وكانت السلطة الحامية حظرت

تدريسه بالمساجد والجوامع، فاتصل بالصدر الأعظم ـ وهو وقتئذٍ ابن عزوز ـ وكان شهماً نبيلاً، فكلَمه في الأمر، فقال له: سر على عملك ولا عليك، فواصل إقراءه مع الطلبة، وكان أول مَن خرق هذا الحاجز الموهوم، ـ على أنَّه كلفه ذلك ثمناً غالياً ـ!

وكانت دروسه في شهر ربيع الأول ـ كتاب: «الشمائل» للترمذي، وبردة البوصيري، وبعض الموالد الخاصة، وله منظومة مطولة في هذا الباب، وفي شهر رمضان، كان يدرس شفاء عياض، ويتوسع في ذلك، فيملي ما في شروح الشفا، ويضيف إليها من المواهب اللدنية بشرح الزرقاني، وسيرة ابن سيد الناس، وسيرة الحلبي، وسواها من كتب السير والأثر.

تقلبه في بعض الوظائف:

لقي المترجم ـ بعد عودته إلى تطوان ـ بعض مضايقات من رفاقه في الطلب، الذين تولوا مناصب عليا في الإدارات الحكومية، حتى كاد يرجع من حيث أتى، وقد اضطر إلى قبول وظيف كان دون مقامه.

ومن الوظائف التي تقلب فيها: مستشار ثان بوزارة العدل، ثم قاضي القضاة بإقليم الريف من شمال المغرب، ومستشار شرعي بوزارة الأحباس، ثم أخيراً أستاذ مادة الحديث بالمعهد العالي بتطوان.

رحلته الثالثة:

ثم حجَّ الحجة الثالثة سنة (١٣٥٦هـ)، وكان قد باع قطعة أرض من غرسة لزوجه بحي السواني من طنجة، فركب سفينة إسبانية تدعى: «ماركس دي كومياس» وعندما أبحرت من سبتة، قال فيها قصيدته التي مطلعها:

فُلْكَ السَّنَا «مَارُكِيس دِي كُومْياسِ» وَثَـنـاؤُهـا لِـلـسُّـفْـنِ كَـالـنَـبْـرَاسِ

وكان اصطحب معه في هذه الرحلة ولده الأكبر محمد الزمزمي، ثم أرست بهم الباخرة في ميناء طرابلس ليبيا، فنزلوا إلى البر، وقضوا هناك

بعض الوقت، فاتصل المترجم بكبار مشايخ العلم بطرابلس، وزار قبر الصحابي الجليل المنيذر الإفريقي ـ دفين قرية غريانة من ضواحي طرابلس ووقف على جامع أحمد باشا ـ وهو مسجد كبير عامر بحلقات العلم، فحضر درس شيخ الجماعة مصطفى بن باكر الطرابلسي، واستأذنه في إجازته والرواية عنه، فأجازه بكل ما لديه من معقول ومنقول ـ كتابة ومشافهة ـ، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالمصافحة وتشبيك الأصابع، والمعانقة، وقال له: أصافحك كما صافحني شيخي سيدي أحمد العطاس، وأورده بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ وأجازه في صحيح البخاري، إجازة مطلقة ذكر فيها سلسلة شيوخه وبعض أسانيده إلى الإمام البخاري، وكان المترجم يعتز بهذا المسند ـ وربما كان أعلى سند له ـ وناوله المعجم الكبير، والصغير للطبراني، وعندما حلوا بجدة من أرض الحجاز، نظم قصيدة يقول فيها:

يا جدة جودي لنا ... بالوصل فالقلب انضنى
يا جدة حي الحشا ... بالقرب فالصبر انفنى

وهي طويلة.

ولمَّا أدى المترجم مناسك الحج وتهيأ للرجوع، وقف وقفة خشوع وقد وخطه الشيب، ووقف على عتبة الستين، ـ وهي مرحلة الشيخوخة والإنذار بالموت؛ فدعا الله عزَّ وجلَّ أن يجعله من أحبائه، ومن خدام سنَّة نبيه محمد ﷺ.

❑ تدريسه للحديث وعلومه ـ ومنهجه في ذلك:

تفرغ المترجم في أخريات حياته لتدريس الحديث وعلومه، وكان له درس خاص بصحيح البخاري بجامع للا فريجة من حومة السويقة، على بضع خطوات من دار سكناه، وكان يلقيه بين العشاءين، يحضره نجباء الطلبة وعامة المؤمنين، وقد عشت هذه الدروس، وكنت السارد فيها مدة سنوات، وكان المترجم لا يفضل على «صحيح البخاري» أي كتاب، مهما

كان شأنه، ويرفض القول بأنَّ المغاربة يفضلون «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري» لمزايا عدوها، ويقول: «إنَّ المزية لا تقتضي التفضيل، وكان له منهج خاص في تدريسه».

١ ـ يفتتح الدرس بصلوات ودعوات، وتراتيل خاصة، ثم يتخلص لقراءة نص الحديث بسنده المتصل.

٢ ـ يبحث وجه المناسبة بين الترجمة والتي قبلها ـ وهو موضوع ألَّف فيه بعض الأئمة ـ بوجه خاص، ويقال: «إنَّ فقه البخاري في تراجمه».

٣ ـ ثم يرجع إلى رجال السند ـ واحداً واحداً ـ إلى الصحابي راوي الحديث، فيورد ترجمة كل واحد، ويتوسع في ذلك أكثر من اللازم، حتى إنَّه يتراءى لك الراوي وكأنَّك عشت معه، وعرفت أطوار حياته، والبلدان التي تجوَّل فيها، والشيوخ الذين أخذ عنهم أو صحبهم، وما له من مدارك وخصوصيات حتى الوفاة.

٤ ـ ثم يشرح الكلمات الغريبة في الحديث، وهنا يرجع بك إلى معاجم الحديث، وقواميس اللغة، وأصول العربية بتوسع مستفيض، وربما يختلف شراح الحديث في ضبط كلمة، أو إعراب جملة، فيكون الحكم فيها سيبويه في كتابه، وابن جني في خصائصه، والزمخشري في مفصله، ويقول: دع عنك بنيات الطريق!

٥ ـ ثم أخيراً ـ وليس أخيراً ـ ما يستنبط من الحديث؛ من أحكام فقهية، وفوائد علمية، وآداب، وأخلاق، إلى غير ذلك.

وكان الكتاب المسرود ـ عنده ـ: «إرشاد الساري على صحيح البخاري» للإمام القسطلاني، أمَّا الجو الذي يعيشه الطالب مع الحديث، فهو ما يمليه ابن حجر في «الفتح» من شروح وتوضيحات، وما يورده من روايات، وما يصححه من أسانيده وما يستخرجه من حكم وفوائد، وحدث عن البحر ولا حرج! وهنا يسمو الشيخ، ويحلق في أجواء ما كنا لنعرف ما هناك، ونحن حديثو العهد بهذا الفن! وكانت أحياناً تقع محاكمات بين العيني وابن حجر، فإنَّهما ربما اختلفا في فهم بعض العبارات، أو شرح

إحدى الكلمات، أو ترجيح بعض الروايات، أو تبيين أحد المبهمات؛ فَيُقدم الشيخ ملفاً ضخماً يحتوي على وثائق ومستندات، وهكذا يعلن عن محاكمة الرجلين، ويدلي بحجج الطرفين، ويوضح حجة كل منهما، ثم يصدر حكمه، ويذكر ما فيه من حيثيات، ومستندات، وقد تطول هذه المحاكمة أو تقصر، ولكن الشيخ كان دائماً مع الحافظ ابن حجر، ويقول: شتان ما بين الرجلين!

ولا أعرفه وقف ـ ولو مرة واحدة ـ إلى جانب العيني، وربما كان على حق في ذلك؟

❑ مصطلح الحديث:

أمَّا درسه في علوم الحديث، وإن شئت قلت: في مصطلح الحديث، فغالباً ما يكون في غير أوقات الدراسة النظامية كيومي الجمعة والأحد، وفي الساعات الأولى، كالتاسعة، أو العاشرة، أو الحادية عشرة صباحاً، وكان الكتاب المقروء: «شرح الترموسي على ألفية السيوطي» وكنا نستنسخه، لأنَّه نادر الوجود، لكن الشيخ لم يكن يقتصر على ذلك، بل يستوعب كل ما كتب في هذا الفن.

من مثل مقدمة ابن الصلاح، وشروح ألفية العراقي، وطُرفة الفاسي، ونخبة الفكر ـ يشرحها ـ لابن حجر، وسواها، ويخرج من كل ذلك بزوائد وإضافات، ثم ينظمها على الأثر، فتجمع لديه من ذلك مؤلف كبير، أسماه «الذيل»، وهو كذيل الطاووس، أناق على الأصل بعدة أبيات، وكان يحفظ كل ذلك عن ظهر قلب، لما يتمتع به من ذاكرة قوية رغم كبر سنه، والأمراض التي كانت تنتابه من حين لآخر، ويعاني من داء الفتق الأمرين حتى يكاد يسقط في محرابه، وهو في كل ذلك صابر محتسب لله تعالى.

وهكذا قضى مترجمنا جلَّ حياته في خدمة العلم، ما بين تلق من أفواه الرجال، وتطواف على مدارسه ومعاهده، وتدريس لمواده وفنونه، وتأليف في مختلف ميادينه ومجالاته، إلى أن أسلم الروح إلى بارئها بين

جدران مكتبه، وحدثني أحد أولاده أنَّه لما ثقل عليه الأمر، وشعر بقرب أجله، وقف على باب مكتبته، وألقى عليها نظرة وكأنَّه يودعها الوداع الأخير، وقال له: تناول أحد أجزاء «فتح الباري» ـ وهو الكتاب المفضل عنده ـ، واقرأ عليَّ ما تجده فيه، قال: فوقع في يدي كتاب: «الرقاق»، ففتحته فإذا فيه: باب ذهاب الصالحين، عن مرداس الأسلمي، قال: قال النبيّ ﷺ: «**يذهب الصالحون الأول فالأول**» الحديث.

فقال: قضي الأمر، ارموا بهذه الأدوية، فاتجه إلى القبلة ـ وكان على وضوء ـ فكبَّر وقرأ فاتحة الكتاب، فلم يكملها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة رحمة الله عليه، وكان ذلك على الساعة الثامنة صباحاً، **٢١** ذي الحجة عام تسعة وستين وثلاثمائة وألف، موافق **٤** أكتوبر سنة (**١٩٥٠**م).

وكان قد نظَّم قصيدة يذكر فيها يوم قدومه على مولاه، ويرجو رحمته ورضاه؛ وقد قدم لها بقوله: الحمد لله، كثيراً ما أتفكر في يوم قدومي على ربي، مع كثرة ذنوبي، وعيوبي، وقلة زادي، حتى تضيق بي الأرض بما رحبت، وأكاد أن يغشاني القنوط من رحمة الله تعالى والعياذ بالله! ثم أتفكر في سعة رحمة مولاي الكريم، وغناه عن كل العبيد، فجرت يوماً على لساني هذه الأبيات، وأنا ـ لله عبد ـ آمر أهلي وأولادي، أن يجعلوها في قبري يوم موتي، وقدومي على ربي عزَّ وجلَّ؛ وهي هذه:

يوم القدوم على الكريم ... ما مثله ـ والله ـ عيدْ
فيه مجاورة الرحيم ... فيه المثوبة والمزيدْ
فيه أنال من الحليم ... عفواً ـ ولو كنت ـ مريدْ
إني إذا ما أذكر ... قرب اللقا فرحي بزيدْ
لله يوم زارني ... فيه بشير لقاء المجيدْ
يوم أرى فيه البشير ... ـ لا ريب ـ لي يوم سعيدْ
هنوا الكئيب بقولكم: ... بشراك فافرح يا شريدْ
قولوا لعبد قد أسا ... إن الغني مولى حميدْ
فالله ذو الفضل العظيم ... وعليه يعتمد العبيدْ

والـــرب جـــلَّ جـــلالـــه ... رب رحـــيـــم لا يـــبـــيـــذْ
مـــولاي إنـــي مـــســـرف ... والـقـلـب مـن ذنـبـي حـديـذْ
مـــولاي ذنـــبـــي لا يـــعـــد ... فـي نـزره أخـشـى الـوعـيـذْ
لـكـن رجـائـي فـيـك قـد ... أوحـى بـفـوزي يـا مـجـيـذْ
فـاغـفـر عـظـيـم جـرائـمـي ... فـلـعـبـدك الـظـن الـوطـيـذْ
وارحـم عـبـيـداً قـد عـصـى ... بـالـجـود والـفـضـل الـمـديـذْ
فـالـفـضـل بـحـر زاخـر ... يـكـفـي الـورى يـوم الـمـزيـد
وامـنُـن عـلـي بـتـوبـة ... قـبـل الـرحـيـل إلـى الـصـعـيـذْ
واخـتـم بـإيـمـان عـسـى ... آتـي ـ غـداً ـ وأنـا سـعـيـذْ
بـالـمـصـطـفـى طـه الـشـفـيـع ... قـد لـذت فـارحـم ذا الـشـريـذْ
ولـدى الـسـؤال فـثـبـتَـنْ ... نـطـقـي بـفـضـلـك يـا مـجـيـذْ
مـولاي صـلِّ عـلـى الـحـبـيـب ... مـا قـد رجـا عـبـد شـريـذْ
وادم عـلـيـه تـكـرمـا ... أزكـى سـلامـك يـا حـمـيـذْ
والآل ســـــادات الـــــورى ... والـصـحـب مـا قـد لاح عـيـذْ

وقد شيع بها إلى مقره الأخير في حفل رهيب! وعندما ووري التراب، وقف على قبره يؤبنه رئيس المجلس العلمي، أبو المكارم التهامي الوزاني، وقال: إنَّ عقله الكبير، لم يقبل الكير؛ لأنَّه لم يخلق لذلك، وإنَّما خلق للعلم يلتهمه، وللمعرفة ينشرها، ولسنَّة رسول الله ﷺ يبثها في صدور النَّاس، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة؛ فنم قرير العين، تنعم في جوار الله ورضوانه.

وعندما رآه شيخ الجماعة بتطوان أبو العباس الزواقي على أعواد نعشه، قال: الآن، مات علم الحديث بتطوان!

فرحمك الله يا أبا عبدالله، وجازاك أحسن ما جازى به عباده الصالحين، هذا وقد خلف المترجم آثاراً علمية قيمة، وتراثاً ضخماً في علم الحديث».

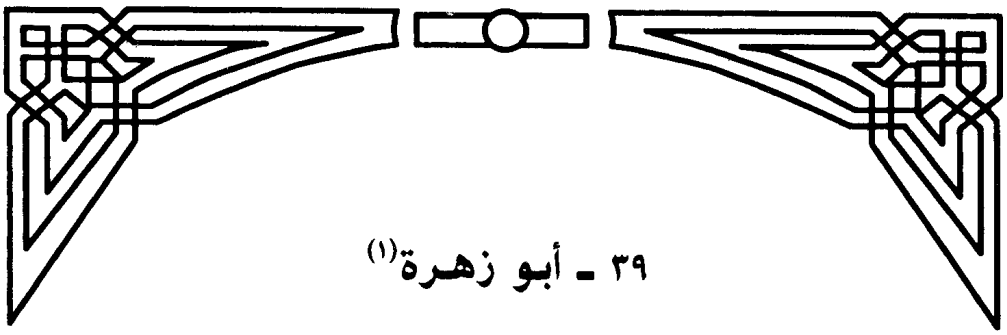

٣٩ ـ أبو زهرة[١]

(ت ١٣٧٤هـ)

مات وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...﴾ الآية

ولد الشيخ محمد أحمد مصطفى أبو زهرة الششتاوي في سنة ١٣١٦هـ في مدينة المحلة الكبرى بمصر.

وينتسب إلى أسرة طيبة محافظة على الدين والقيم الإسلامية، كما يقول الشيخ نفسه: «أسرتي التي كانت عزيزة في مالها، عزيزة في نفسها، ولم تصل إلى درجة الثراء قط؛ ولكنها كانت دائماً في موضع الاحترام والإجلال والتقدير».

وأول ما قرع آذان الصبي النابه محمد أبو زهرة هو ترتيل القرآن، فقد كانت والدته السيدة خضرة ترتله ترتيلاً، ولما وصل إلى سن تلقي العلم أدخله أبوه الكُتَّاب لحفظ القرآن الكريم، وكانت أمه تراجع له ما يحفظه، وقد استطاع أن يحفظ القرآن الكريم وهو في سن التاسعة على يد بعض الشيوخ؛ مثل: الشيخ محمد الجمال إمام مسجد الدهانية، والشيخ محمد الحيكا إمام مسجد الحنفي، والشيخ مرسي المصري إمام مسجد الشيخ عبد ربه.

---

(١) نقلت هذه الترجمة باختصار من كتاب: «محمد أبو زهرة إمام الفقهاء المعاصرين، والمدافع الجريء عن حقائق الدين» للدكتور محمد عثمان شبير.

يقول الشيخ أبو زهرة عن بداية حياته العلمية: «لقد ابتدأت حياتي بدخول المكتب لحفظ القرآن».

وبعد أن حفظ الكثير من القرآن، وتعلم مبادىء الكتابة والقراءة والحساب، انتقل إلى المدارس الراقية التي تعلم العلوم المدنية من تاريخ وجغرافية ورياضيات، وكيمياء وفيزياء، هذا بالإضافة إلى علوم العربية وآدابها، والدراسات الدينية المنهجية وغير ذلك.

ثم ذهب إلى طنطا والتحق بالمعهد الأحمدي الأزهري في الجامع الأحمدي، وكان ذلك سنة ١٣٣١هـ، حيث قال الشيخ: «لما أخذت أشدو في طلب العلم، وأنا في سن المراهقة دخلت المعهد الأحمدي بطنطا».

وفي هذا المعهد بدت عليه مظاهر النبوغ والتفوق حتى إنَّ الشيخ الأحمدي الظواهري شيخ المعهد الأحمدي قرر له مكافأة مالية لتفوقه وتميزه على أقرانه، كما اقترح أن تختصر له الدراسة في الأزهر، وكان آنذاك خمسة عشر عاماً ليتمكن من اجتيازها في مدة أقل، ولكن هذا الاقتراح لم ينفذ لصعوبته قانونياً.

هذه المظاهر لم يوجد أساسها في الشيخ في هذه اللحظة، وإنَّما هو موجود فيه منذ الصغر.

كما يقول عن نفسه: «اختلطت حياتي بالحلو والمر، وكنت في صدر حياتي أرى مُرَّ الحياة، وأرى حلوها جداً، لقد ابتدأت حياتي العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش في الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر صورة النبات في ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشىء منَّا وفي حبته الأولى في الصبا تكمن كل خصائصه في الكبر، وكنت أشعر وأنا في المكتب بأمرين ظهرا في حياتي فيما بعد؛ الأمر الأول: اعتزازي بفكري ونفسي حتى يقال عني: إني طفل عنيد، والأمر الثاني: أني كنت أتضايق من السيطرة، ولعلَّ الأمرين متلازمان؛ لأنَّ الاعتزاز بالنفس يتولَّد عنها بعض السيطرة، ولمَّا أخذت أشدو في طلب العلم، وأنا في سن المراهقة دخلت المعهد الأحمدي (بطنطا) فظهر في طبيعتي أمر أحسسته،

ولعلَّه من مظاهر النزعتين السابقتين، وهو أني كنت أفكر لِمَ يوجد الملوك، وبأي حق يستعبد الملوك الناس، فكان كبر العلماء عندي بمقدار عدم خضوعهم لسيطرة الخديوي الذي كان أمير مصر في ذلك الوقت، وكبر في نظري عالم كبير؛ قال للخديوي، وقد أخذ يطلع على أسئلة المنطق التي وضعها ذلك الشيخ لطلبة المعهد الإسكندري، فقال للخديوي: وماذا تعرف من علم المنطق؟ قال شيخ المعهد: أتشتم الخديوي؟ فكبر ذلك الشيخ في نظري، واهتززت بالإعجاب به، حتى كنت إذا رأيته اهتزت نفسي بالإعجاب. واستمرَّ ذلك الشيخ له الحظوة العليا في تقدير طالب علم مثلي حتى رأيته يتملق ويصبح من رجال أحمد فؤاد سلطان مصر، فذهبت كل روعة له عندي، وانتقلت من النقيض إلى النقيض»[1].

فإذا كان لكل شخصية مفتاح ـ كما بيَّن صاحب العبقريات عباس محمود العقاد ـ فإنَّ مفتاح شخصية الشيخ أبو زهرة هو الاعتزاز بالنفس، وبما يحمل من فكر ورأي، وما يتولد عن ذلك من بغض للسيطرة، وحب للحرية، واهتزاز قلبه للحُر الرشيد، حتى إنَّه كتب عدة مقالات في هذا الصدد منها: **(الإسلام الحر الرشيد)** جاء فيه: «حرر الإسلام الإنسان في عقله وفكره ونفسه، وشخصه وإرادته، فصار يفكر حراً، ولا يعمل إلاَّ بحرية من غير انطلاق وبلا تقييد إلاَّ ما يكون في القيد حماية لغيره، وحريته، حتى لا يكون منطلقاً من غير رادع، ولا زاجر، وتكون حريته كحرية الحيوان المتأبد المتوحش المنطلق في البراري والغابات».

ثم انتقل إلى **مدرسة القضاء الشرعي**، وكانت هذه المدرسة لا تقبل إلاَّ المتفوقين من الطلاب الأزهريين ليُعدوا إعداداً فقهياً تطبيقياً.

كما يتضمن منهاج هذه المدرسة المسائل العملية المتعلقة بتحرير المحاضر والأحكام، ونظام المحاكم، وطرق المرافعة واللوائح المعمول بها، والقانون الإداري، وغير ذلك من المواد المتعلقة بإدارة القضاء.

---

(١) تجربتي مع الحياة لمحمد أبو زهرة: ٥٣، ٥٤.

وكان لهذه المدرسة مدير حازم، ومرب ناجح شهد له كل مَن خالطه، قال الشيخ محمد أبو زهرة فيه: «ولمَّا دخلت مدرسة القضاء الشرعي، وكان ناظرها العالم ذو الأخلاق محمد عاطف بركات كان شديد الاستمساك برأيه ما دام لم يعلم أنَّه باطل، وكان قوياً في نفسه، لا يسيطر عليه إلاَّ ضميره وعقله، فمن هذا النبع استقيت ما تغذت به نفسي، وأرضى نزعتي، وإذا كان من الناس مَن يرى في تمسكاً، ولا أصير وراء الناس، فإنَّ هذا من تلك التربية العالية».

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة في بيان علاقته كطالب مع أحد أساتذة هذه المدرسة وهو الشيخ عبدالوهاب خلاف: «نحن الذين ارتبطنا مع ذلك العالم الجليل برابطة الود والصداقة، وذقنا لطف عشرته، نحس بأنَّا فقدنا جزءاً من أنفسنا».

قال الدكتور عدنان زرزور في أثر هذه المدرسة في شخصية الشيخ محمد أبو زهرة العلمية: «ويمكن القول: إنَّ الأثر الأكبر في شخصية أبي زهرة العلمية وشغفه الذي لا حدَّ له بالمعرفة، والمطالعة، والتأليف يعود إلى مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأتها الحكومة المصرية أصلاً لما رغبت في إصلاح القضاء الشرعي، ولم تستطع أن تعول في ذلك على علماء الأزهر كما قال الشيخ المراغي رحمه الله».

وبعد أن تخرج الشيخ محمد أبو زهرة في مدرسة القضاء الشرعي التحق بمكتب محاماة للتدريب على مهنة المحاماة، وبعد أن أمضى سنة في التدريب على المحاماة قدَّم طلباً لدار العلوم المصرية لمعادلة شهادة مدرسة القضاء الشرعي بشهادة دار العلوم، وطلب منه أن يستعد لامتحان المعادلة بعد ستة أشهر، وبعد هذه المدة استطاع أن يجتاز امتحان المعادلة، ويحصل على شهادة دار العلوم من الخارج (الانتساب) كما قال أبو بكر عبدالرزاق: «أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج عام ١٩٢٧م».

وممَّا يؤكد هذا ما دار بين الشيخ وتلميذه يوسف البدري من حوار في معهد الدراسات العربية بالقاهرة والذي كان يظن أنَّ شيخه خريج القضاء

الشرعي فقط، حيث قال: «كنت أعلم أنّه خريج مدرسة القضاء الشرعي وكانت دفعته تضم مجموعة فذة من العلماء، ولم أكن أعلم أنّه درس في دار العلوم».

ثم قال البدري: «في إحدى المحاضرات سألني، وقد لاحقته بكثير من الأسئلة التي حاولت فيها إظهار مدى قراءاتي: كم من الوقت استغرقت لنيل الليسانس؟ فأجبته على الفور: أربع سنوات فقط، وكنت من المتفوقين، فأجابني في بسمة مفاجئة: أتدري كم استغرقت أنا للحصول على شهادتك؟! فأجبته: لا أدري!! فقال الشيخ: في ستة أشهر حصلت على دار العلوم، في ستة أشهر. ووجدتني أعلق في سرعة مذهلة: نعم يا مولانا... أيام الرخص، فضحك الشيخ حتى استلقى، وقد أغرب في الضحك مع ضحكات الطلاب، ثم قال الشيخ: أيام جودة الصنف يا ولد يا يوسف.

بعد أن حصل الشيخ أبو زهرة على شهادة مدرسة القضاء الشرعي، ودبلوم دار العلوم سنة **١٩٢٧**م عُيِّن مدرّساً للعلوم الإسلامية والعربية في تجهيزية دار العلوم، ثم انتقل إلى التدريس بالمدارس الثانوية العامة في سنة **١٩٣٠**م، ثم انتقل إلى العمل في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف في أوائل سنة **١٩٣٣**م.

وفي سنة **١٩٣٤**م انتقل للعمل في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، مع بقائه منتدباً للتدريس في كلية أصول الدين، ثم تولى رئاسة قسم الشريعة في كلية الحقوق، كما تولى وكالة الحقوق بجامعة القاهرة.

يقول الدكتور محمد عثمان شبير: أوتي الشيخ أبو زهرة مواهب متعددة ساعدت على أن يحتل مكانة مرموقة في أوساط الناس؛ على جميع المستويات من حكام وعلماء وطلاب وعامة الناس؛ ومن هذه المواهب: حدة الذكاء، وقوة الحافظة والذاكرة، وحضور البديهة، ونفاذ البصيرة، وسعة الأفق. وفيما يلي بيان لهذه المواهب عند الشيخ رحمه الله تعالى؛ والتي كان لها أثر في احترام النّاس وتقديرهم له.

١ ـ حدة الذكاء:

بيَّنا في أسرة الشيخ رحمة الله أنَّه ينتمي إلى أسرة ذكية كما ذكر في تجربته مع الحياة، ولم يكن الشيخ أقل ذكاء من أفراد أسرته، بل فاقهم في الذكاء، حتى قال فيه **الشيخ عبدالمعز الجزار** بعد وفاته: «لا أكون مغالياً إذا قررت أنَّ قرننا لم يشهد عالماً فذّاً أوتي ما أوتيه أبو زهرة من ذكاء نادر، وخصوبة ذهن، وبسطة في العلم، وقوة إدراك وملاحظة، وغزارة مادة في أسلوب سليم، ووفرة إنتاج في الفقه والتفسير والحديث، ولغة القرآن، والتراجم والمحاضرات، والندوات في الداخل والخارج».

وقال الشيخ **صلاح أبو إسماعيل** واصفاً مشاركة الشيخ أبو زهرة في ندوة مجلة (لواء الإسلام) الشهرية: «كان يبهرنا بذاكرته وذكائه الوقاد، إذ كان يُجمل في كلمته ما تناثر من تفاصيل القول بألسنة المتحدثين، فيجمع المتفرق، ويجمل المفصل، ويوجز بعد إسهاب، ولو أنَّ ذلك كان دوره فقط لكان عجباً أن يستعين بالذاكرة دون مذكرة، فلا تغيب عن ذهنه شاردة ولا واردة مما تناوله المتحدثون، ولكن دوره لم يقف عند هذا المدى، بل كان يأتي بالجديد المفيد والإضافات المذهلات التي تقاصرت عنها الهمم، وادَّخرها الله لهمته في كل ندوة لتنبىء عن غزير العلم، وعميق الفقه وسعة الأفق، وطول الباع وعمق الاطلاع».

وكان رحمه الله الأول في دفعته، ويفتح حواراً مع أوائل الطلبة الذين سبقوه في الدراسة، فحينما كان في السنة الثانية في مدرسة القضاء الشرعي كان يناقش الشيخ حسن الخطيب أول دفعة السنة الرابعة، إمَّا في وقت الراحة، وإمَّا في وقت الذهاب والإياب من المدرسة، وكانت المناقشات علمية فقهية في الغالب.

٢ ـ الذاكرة القوية:

وهب الله تعالى الشيخ أبو زهرة ذاكرة قوية وحافظة واعية لا ينسى ما شاهده أو قرأه، فإذا قرأ كتاباً استوعبه لأول قراءة، وناقشه غيباً مع ذكر رقم الصفحة والسطر للموضوع الذي يعرض له بالمناقشة، وكان يندر أن يخطىء

في أرقام الصفحات والسطور. وإذا تحدَّث في التاريخ والأحداث السياسية والوقائع المصرية والعالمية جرت على لسانه بكل دقة وغزارة يسردها كما وقعت بتواريخها وأشخاصها لا ينسى شيئاً من ذلك، فقد كان رحمه الله قطعة حية من التاريخ. وإذا حاضر في أي موضوع تحدَّث من دون ورقة أو كتاب.

يقول أحد طلابه **يوسف البدري** في مناقشته لرسالة معيد في الكلية بعنوان (ابن القيم): «لقد هال الحاضرين تلك الموسوعة المتحدّثة من الذاكرة، لا تخطىء رقم الصفحة أو اسم الكتاب أو حتى رقم السطر وتاريخ الطبع... تلك الموسوعة هي أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله عليه، حيث كان جَالساً،.. لا ينظر في كتاب ولا مفكرة، وإنَّما يقول للطالب: قلت في صفحة كذا سطر كذا ما نصه كذا نقلاً عن كتاب كذا صفحة كذا، سطر كذا... إلخ، وعندما كان الطالب يعترض مبرراً وجهة نظره كان يحيله الشيخ أبو زهرة إلى أكثر من مرجع محدداً الصفحة والباب والفصل، بل والسطر، وتاريخ الطبع، لقد دهش الحاضرون من هذه الذاكرة، ولم يلفت نظرهم من المناقشين أحد مثله، كل ذلك وهو باسم الفم، جاد اللهجة، قوي النبرات، واضح العبارة، منطقي الفكر».

وروى الأستاذ محمد السيد بدر أستاذ فلسفة القانون الروماني: «أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه للمرحوم الدكتور حسين النوري، والذي حضر مناقشتها الرئيس محمد نجيب، ناقشها الشيخ من الذاكرة، يناقش سطوراً في كثير من صفحات الرسالة، يحددها بالصفحة والسطر طوال أكثر من ساعتين دون أن يخطىء مرة واحدة في تحديد صفحة أو سطر أو عبارة أراد أن ينقدها».

وروى ابنه الدكتور مصطفى أبو زهرة: «أنَّ والده اختلف مرة مع بعض ورثة صديق له عندما أخذوا رأيه في مكتبة والدهم، لأنَّه اقترح عليهم أن يتركوا له تلك المكتبة بعض الوقت كي يقرأ بعض كتبها، خاصة الكتب التي لم يكن قرأها من قبل، ثم يتركها لهم يتصرفون فيها كيفما أرادوا؛ لأنَّه

لا يهمه أن يحتفظ بالكتاب بعد قراءته، فتصور أبناء صديقه وزميله أنَّ الشيخ لم يأخذ الأمر بشكل جدي، فانصرفوا، ولم يعودوا إليه ثانية، مما حرَّك بعض الأسى في نفسه... ولنفس السبب كان لا يهمه أن يعود إلى الكتاب.

ونتج عن ذلك أنَّه كان لا يهتم باقتناء الكتب بعد قراءتها، ولذا كانت مكتبته غير حافلة بالعدد الضخم من الكتب كما يتصور البعض».

ويذكر ابنه الدكتور مصطفى أنَّه كان يذهب إلى المؤتمر أو الندوة ولا يحمل ورقة ولا قلماً، ولا بحثاً معداً، ولا موضوعاً معيناً يتحدَّث فيه... كان يكفيه أن يعرف موضوع الندوة أو اسم المحاضرة. ثم يضيف ابنه: «من الأمور التي تميَّز بها والدي رحمة الله عليه أنَّه طوال حياته لم يسجل أرقام تلفونات لأحد من أصدقائه، ولكن كل الأرقام مختزنة بذاكرته، فعندما يريد أن يطلب أحد الأقارب أو الأصدقاء أو الزملاء كان يدير قرص التلفون طالباً إياه، حتى ولو مضى على آخر اتصال أو لقاء سنة أو سنتين أو أكثر... باختصار لم يكتب رقم تلفون في حياته، ولم يطلب من أحد منَّا تسجيل رقم، أو عنوان خاص به».

❑ أمَّا عن أخلاقه:

وإن أبلغ الإخلاص كما يقول أبو زهرة رحمه الله: «أن يخضع الشخص نفسَه لما أراد الله، وما أراد الحق، بحيث يكون طلب الحق شهوته وهواه، فيدغم أهواءه وشهواته في طاعته سبحانه، وفي سبيل الفضيلة، ولذا قال ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هَواهُ تبعاً لِمَا جئتُ به**»، وإنَّ الإخلاص ليستولي على قلب المؤمن فيحس بسلطان الله على قلبه في كل ما يصنع، فيكون سمعه الذي يسمع به، وعينه التي يبصر بها، ويده التي يبطش بها، ويكون كل ما يفعل لله تعالى».

وممَّا يدل على إخلاصه قوله في آخر حياته: «أحسب في حياتي كلها أن الله كان معي مع كثرة الذين يرومون بي السوء، وما خيَّب الله لي أملاً

ولا رجاءَ، وكنت أُضطهد في العهود السابقة، فكلما اشتدَّ الكرب عليَّ جاءني الفرج من حيث لا أحتسب». وهو يوصي طلبته بالإخلاص في قوله: «وإني أقول نصيحتي لأبنائي الذين أنعم الله عليَّ بأنَّهم تخرجوا على يدي: كونوا يا بني مع الحق دائماً، وأخلصوا لله دائماً، ولا تمالقوا أحداً في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبداً».

كان الشيخ أبو زهرة رحمه الله يتَّصف بالتواضع، وخفض الجناح لزملائه الذين عملوا معه، فلم يركبه الغرور، ولم يستبدَّ به العجب؛ لأنَّه يدرك بيقين أنَّ العلمَ بحرٌ عميقٌ لا شطآن له، ولا يصل أحد إلى قراره. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو يصرِّح بذلك إذ يقول: «إنَّ أشد ما يصاب به العالم أن يُعجَب بعلمه، وبنفسه وبرأيه، فيحسب أنَّه لا يخطىء أبداً، أو يحسب أنَّ قوله يُتَّبَعُ من غير بيّنة ولا حجة ولا سلطان، وأنَّه متبع وحده».

من الأمثلة الواقعية على تواضعه ورجوعه إلى الحق ما ذكره تلميذه **الدكتور أحمد الكومي**، حيث قال: «أذكر أنَّه اعترض على الشيخ حجازي في بعض مناقشاته على رسالته للدكتوراه حول الوحدة الموضوعية في القرآن، فمنعت الشيخ حجازي من الإجابة، وقلت: «إنَّ الشيخ أبا زهرة لم يفهم موضوع الرسالة» وقامت ضجة كبرى في القاعة لهذه الكلمة، ولكني ألقيت بياناً بعدها مباشرة وضَّحت فيها للشيخ أبي زهرة أنَّ موضوع رسالة الطالب لا يتعلَّق بسؤاله حول التدرج في تحريم جريمتي الربا والزنا، وأنَّ صاحب الرسالة لم يعرض لهما لأنَّهما خارجان عن موضوع رسالته، فسُرَّ الشيخ أبو زهرة من ذلك، وقام من فوره وعانقني أمام الحاضرين، وفي هذه الأثناء همس أحد الأساتذة المشاركين في مناقشة الرسالة معنا ملمحاً بأنَّ الشيخ أبا زهرة يعارض أي وزير ولا يجرؤ أن يعترض عليه أحد، وأنت تعترض على رأيه!! فرد عليه الشيخ أبو زهرة في الحال بقوله: اسكت، لقد وجهني إلى ما كنت أجهله».

ويذكر تلميذه **الأستاذ علي عبدالعظيم**: «لقد اختلفت معه رحمه الله في

تفسير أول سورة الأنبياء، فكان رحمه الله يفسر قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ٢]، فكان يفسر (الذكر) في الآية بمعنى الرسول ﷺ، وكنت أرى أنا أنَّ معنى (الذكر) في الآية: كتاب سماوي. وكان الإمام يؤكد رأيه بقوله تعالى في الآية التالية: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقال فيما قال لي الإمام أبو زهرة: «لك أن تعلّق على تفسيري بما تشاء، وأنا لا أمنع الرأي الآخر، بل أحترمه قدر احترامي لنفسي، ويسرني غاية السرور أن يكون من تلامذتي مَن يراجعني، فإنَّما أنا بشر أخطىء وأصيب».

وقال **الدكتور محمد عبدالواحد وافي**: «كان رحمه الله واسع الصدر، يرحب كل الترحيب بما يوجه إلى بحوثه من نقد سليم بنَّاء، فقد عقبت على مناقشته لما ذهب إليه ابن خلدون بشأن انتشار مذهب الإمام مالك، وأخذت عليه بعض مآخذ في تحقيقي للمقدمة... فتلقى هذا التعقيب بكل صدر رحب، ووعد بتدارك ما فاته في الطبعات التالية لكتابه».

وتوفي - رحمه الله تعالى - كما ذكرت ابنته حياة النفوس وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: «﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. فبينما كان ينزل من الدور الأعلى، ويحمل المصحف مفتوحاً على سورة النمل، وكذلك الأوراق التي يكتب فيها التفسير، وقلم الحبر، كل ذلك في يده، وفنجان القهوة الذي صنعه بنفسه في اليد الأخرى، ففي هذه الأثناء سقط رحمه الله ساجداً على الدرج، وأصيب في رأسه جراء هذه السقطة واستمرَّ في غيبوبة منذ أذان صلاة الجمعة إلى ما بعد غروب ذلك اليوم، حيث فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها...».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٤٠ ـ محمد الباقر الكتاني

(ت ١٣٨٤هـ)

مات وهو يؤلف كتابه: «يواقيت التاج الوهاج»

(ترجمته بقلم ولده العلاَّمة عبدالرحمن الكتاني)[١].

هو سيدنا الوالد: الشيخ الإمام الحافظ الحجة، المثل الأعلى للسلف الصالح، وحامل لواء الإرشاد الحقيقي بالمغرب العربي، والمرشد الروحي للطريقة الأحمدية الكتانية، أبو الهدى مولانا محمد الباقر ابن شيخ الدنيا وحافظها وحجتها، مجدد الشريعة المحمدية، ومؤسس الطريقة الكتانية أبي الفيض مولانا محمد الكتاني الإدريسي الحسني، نزيل مدينة سلا بالمغرب الأقصى.

مولده ونشأته:

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في بلدة فاس عاصمة العلم والعرفان بالمغرب، سنة ١٣١٩ من هجرة سيد الأنام، وسماه الشيخ الإمام والده ـ قدَّس سره ـ: محمد الباقر، رجاء أن يكون على قدم الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن السبط الشهيد سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، في العلم والمعرفة والصلاح.

---

(١) من أعلام المغرب العربي ص: ١٥٢ وما بعدها.

ورُبي في سنواته الأولى في حجر والده الكريم موصناً مكرماً، محبباً معظماً، ولم يكد سنه يجاوز السابعة حتى جرت محنتهم المشهورة، ووقعتهم المأسوف عليها من الجِنة والناس، فأدخل إلى المعتقل صحبة والدته العارفة بالله وبرسوله، المتوكلة على الله سبحانه في جميع أمورها، والصابرة على المصائب عند حلولها، البرة بالمساكين والأرامل والمنقطعين إلى الله، صاحبة الكشف الحقيقي، المفردة ترجمتها بالتأليف، مولاتنا ملكة، كريمة العلاَّمة المدرس المفتي أبي عبدالله محمد (فتحا) ابن الإمام العلاَّمة المتفنن، مفخرة القرويين، وقاضي طنجة والقصر الكبير، أبي الفضل على المدعو: «علال» الحسني نسباً، المريني لقباً، الفاسي مولداً وداراً ووفاةً.

وبعد انقضاء أيام المحنة التي كانت أهم حوادثها استشهاد والده الشيخ الإمام أبي الفيض، في سبيل جعل كلمة الله بالمغرب هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ومحافظته على استقلال المغرب وجمعه أعيان قبائل المغرب ووجوههم للوقوف في وجه الجيوش الفرنسية التي وطئت ترابه سنة ١٣٢٥هـ.

انتقل إلى كفالة جده إمام الأئمة وعالم الأمة أبي المكارم الشيخ مولانا عبدالكبير الكتاني قدس سره، فكان ينظر إليه بعين الرعاية، ويلحظه بكامل العناية.

ولما أدخل المكتب لتعلم القرآن الكريم، كانت أمارات الصلاح تبدو عليه، وبشائر الخير والفضل تتوالى لديه.

وبعد ما حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون المتداولة؛ أخذ في حضور دروس العلم عن أعلام فاس لذلك العهد بالقرويين وغيرها من المساجد والزوايا وعمره لما يتجاوز الحادية عشرة، كجده جبل السنَّة والدين الشيخ أبي المكارم عبدالكبير الكتاني، ورئيس المجلس العلمي بالقرويين أبي العباس أحمد بن محمد بن الخياط الزكاري، ورئيس المجلس العلمي بالقرويين أيضاً أبي العباس أحمد بن الجيلاني، وقاضي الجماعة بفاس أبي عبدالله محمد بن رشيد العراقي، ومفتي فاس أبي عيسى المهدي بن

محمد الوزاني، وقاضي فاس أبي فارس عبدالعزيز بن محمد بناني، ووزير العدلية بالمغرب أبي زيد عبدالرحمٰن بن القرشي الإمامي، والعلاَّمة المحدث أبي الجمال محمد الطاهر بن الحسن الكتاني، والعلامة المشارك الرضي السناني، وقاضي وازان أبي العباس أحمد بن جلون الفاسي، ومدرس التفسير والحديث بالقسم النهائي بالقرويين أبي عبدالله محمد بن أحمد ابن الحاج السلمي المرداسي... وغيرهم.

ولما انتقل للسكن بمدينة رباط الفتح عاصمة المغرب الإدارية سنة (**١٣٣٩**هـ)، لازم دروس الحافظ المحدث الشيخ أبي شعيب بن عبدالرحمٰن الصديقي الدكالي، نحو سبع سنوات ختم عليه فيها الكتب الستة بتمامها، ودروس الحافظ المحدث رئيس مجلس الاستئناف الشرعي أبي عبدالكريم محمد المدني بن الحُسني الحسني المشيشي نحو ثلاث سنوات... إلى غير ذلك من الدروس التي لازمها حتى أصبح من فحول علماء المغرب، مع ما عنده من الخيرية والفضل والتصدر لإرشاد الخلق...

وفي أثناء ذلك كان يتردد على مسندي المغرب العربي ويكاتب مسندي الشرق العربي بقصد الرواية والعلو في السند؛ فأجازه ابن خال والده إمام الحفاظ والمسندين وقطب الملة والدين أبو عبدالله محمد بن جعفر الكتاني، وشيخ دار الحديث بدمشق الشام، الحافظ الحجة الشيخ محمد بدر الدين بن يوسف الحسني المغربي، والشيخ أبو شعيب الدكالي، والإمام محمد المدني بن الحسني، وشارح جامع الترمذي أبو عبدالله محمد بن إدريس القادري، وقاضي تلمسان الشيخ شعيب بن علي الجليلي التلمساني، وشيخ الجماعة بالرباط أبو حامد المكي بن محمد بن علي البطاوري.

وفي عام **١٣٥٧**هـ رحل للحجاز؛ فدخل مصر واجتمع برجال العلم والدين بها، وأخذ فيها وأخذ عنه، ولم يبرحها حتى ترك فيها مركزاً هاماً للقيام بالدعوة والإرشاد، ونشر الطريقة الكتانية، والتي ترأسها هناك فضيلة العلاَّمة الجليل الشيخ عبدالحميد الشيمي...

ثم دخل الحجاز وأخذ عن بقية مَن وجد هناك من رجال الإسناد،

وأساطين الدين بها كالأئمة الأجلة: محمد عبدالباقي الأنصاري، وعمر حمدان المحرسي المدني وغيرهما ممن حواهم كتابه: «قدم الرسوخ في معجم الشيوخ» في مجلد وسط.

وهو اليوم من كبار حاملي التحديث والرواية في العالم الإسلامي، وله ما يقرب من عشرين مؤلفاً في هذا الشأن.

وقد بشر بمبشرات كثيرة؛ منها ما قيل له: لو علمت ما يراد بك؛ لقرت عيناك، قد ولينا مقام الشيخ عبدالقادر!! وقيل عنه: لو علمتم جاهه عند الله؛ لتوسلتم به في مهامكم!!...

أمَّا الطريقة الكتانية الأحمدية، التي أسسها والده الإمام أبو الفيض رضي الله عنه؛ فيرويها عن الأئمة الأجلة: عمه الشيخ عبدالحي الكتاني، وعلي العدلوني، ومحمد بن أحمد العلوي، وعمر حمدان المحرسي، وعبدالقادر الشلبي، وأبي القاسم الدباغ، وعبدالحفيظ الفاسي، وعبدالكبير بن الماحي الصقلي، وأحمد بن محمد بناني، ومحمد بن يخلف الضرير الجشمي.

❑ وأعلى أسانيده:

روايته عن جده الشيخ عبدالكبير الكتاني، استجاز له منه شقيقه أبو عبدالله المذكور، وعن شيخ علماء الحجاز الشيخ محمد حبيب الرحمٰن الهندي، استجاز له منه والده الشيخ الإمام.

وقد وجدت في كتب مؤرخي المغرب الذين ترجموا للشيخ عبدالكبير: أنَّ إسناده في علوم الأثر أعلى الأسانيد، لأنَّه آخر مَن بقي بفاس يروي مباشرة عن محدث الحجاز الشيخ عبدالغني الدهلوي المدني، في حال أنَّ جميع فقهاء المغرب قبيل وفاته يروون عنه بواسطة أو أكثر.

وأنَّ الشيخ عبدالغني المذكور، يروي عن والده الشيخ أبي سعيد عن الشيخ عبدالعزيز الدهلوي عن أبيه محدث الهند الشيخ أحمد ولي الله صاحب «حجة الله البالغة»، وهو يروي عن الشيخ أبي طاهر الكوراني عن

أبيه محدث الحجاز البرهان إبراهيم عن الشيخ سلطان المزاحي عن الشهاب أحمد السبكي عن النجم الغيطي عن القاضي زكريا عن الحافظ ابن حجر بأسانيده، وأسانيد مَن سمي وعلومهم.

وأنَّ الشيخ عبدالكبير يتصل سنده باليمنيين عن طريق الشيخ عبدالغني المذكور عن حافظ الحجاز الشيخ محمد عابد السندي بأسانيده المذكورة في «حصر الشارد».

ويتصل سنده بالمصريين عن الشيخين: البرهان السقا، والشيخ عليش كلاهما عن الشيخ محمد الأمير الصغير عن والده الشيخ محمد الأمير الكبير بأسانيده التي في فهرسته المشهورة.

ويروي الأمير عن الشهابيين أحمد الجوهري وأحمد الملوي، وهما عن عبدالله بن سالم البصري وأحمد النخلي المكي، في فهارسهم، ويروي الأمير عن الشيخ التاودي بن سودة ما في فهرسته... رحم الله الجميع.

يقول الدكتور حمزة بن علي الكتاني[1]: «ومن عجيب المناسبات أن كتاب: «يواقيت التاج الوهاج» كان آخر ما قام به المؤلف من الأعمال قبل وفاته، فقد حدثتني والدتي الأستاذة نزهة بنت الشيخ عبدالرحمٰن بن محمد الباقر الكتانية ـ حفظها الله تعالى ـ أنَّه كان جالساً وهو يكتب كتابه هذا. ثم مكث مستريحاً وقال لابنته: «حذار أن يقترب فلان من الأوراق» (لطفل صغير من أهل البيت). وطلب حِساء فشربه، ثم قام ليتوضأ استعداداً لصلاة المغرب، وإذا به نُوزع وهو يتوضأ، فحُمل إلى سريره، وتوفي فيه من ساعته، ونظراً لخفة الموت عليه، وإشراق وجهه بحيث مكث إلى اليوم بعده محمرَّ الوجنتين، بهي الطلعة، لم يصدق النَّاس وفاته، فكان هذا الكتاب إيذاناً بعروج روحه إلى الملأ الأعلى رحمه الله ورضي عنه».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) تقديم كتاب: «يواقيت التاج الوهاج» ص:٦.

٤١ ـ محمد ناصر الدين الألباني[١]

(ت ١٤٢٠هـ)

طلب من ابنه قبل ثمان وأربعين ساعة من وفاته إحضار (صحيح أبي داود) لينظر فيه

هو الشيخ المحدث العلاَّمة محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي بن آدم، والملقَّب بـ:(الألباني) نسبة إلى بلدة (ألبانية) والمكنَّى بـ:(أبي عبدالرحمٰن) أكبر أبنائه.

كانت ولادته عام ١٣٣٢ من الهجرة النبويَّة، الموافق عام ١٩١٤م، في مدين (أشقودرة) عاصمة ألبانية في ذلك الوقت.

نشأ العلاَّمة الألباني رحمه الله تعالى في أسرة فقيرة، بعيدة عن الغنى، مُتديِّنة يغلب عليها الطابع العلمي، فقد تخرج والده الحاج (نوح نجاتي)، الألباني رحمه الله في المعاهد الشرعية في العاصمة العثمانية (الآستانة) والتي تعرف اليوم بإستنبول، ورجع إلى بلاده لخدمة الدين، وتعليم النَّاس ما درسه وتلقاه، حتى أصبح مرجعاً يتوافد عليه الناس للأخذ منه.

ولما تولى الحكم في ألبانية الملك (أحمد زوغو)، وسار بها على سَنن جيرانه من أهل الكتاب، وراح يتعقب خطوات طاغية تركية (أتاتورك)

---

(١) هذه الترجمة نقلتها من كتاب: «محمد ناصر الدين الألباني محدث العصر وناصر السنَّة» لإبراهيم محمد علي.

فألزم النساء بنزع الحجاب، وتدنت الحال، وخاف بعض الأسر على دينهم، فبدؤوا بالهجرة، وقد توجس والد الشيخ على دينه، وعلى ذويه خيفة، بسبب كثرة الفساد، وانتشار الفتن، فقرر الهجرة إلى بلاد الشام، واختار مدينة دمشق ـ التي كان قد تعرَّف عليها أثناء قدومه للحج وإيابه منه ـ فسكنها واستقرَّ بها.

كان الشيخ ناصر رحمه الله حين هاجر والده قد شارف على التاسعة من عمره، فأدخله والده بعض مدارسها وهي مدرسة (جمعية الإسعاف الخيري)، حتى أتمَّ المرحلة الابتدائية بتفوق.

ولمَّا لم تَرُقْ لوالده المدارس النظامية من الناحية الدينية أخرج ابنه الصغير منها، ولم يدعه يكمل دراسته، ووضع له برنامجاً علمياً مركَّزاً، قام خلاله بتعليمه القرآن والتجويد والنحو والصرف وفقه المذهب الحنفي.

قد تلقى الشيخ الألباني على والده القرآن حتى ختمه عليه برواية حفص عن عاصم تجويداً، ودرسه بعض كتب الصرف في العربية، ودرسه أيضاً في الفقه، ومن الكتب التي درَّسها له كتاب: «مختصر القُدُوري» في فقه الأحناف. وكان والد الشيخ الألباني رحمهما الله جميعاً شديد التعصب للمذهب الحنفي، وقد حدث الشيخ الألباني رحمه الله مراراً أنَّ أباه لم يكن راضياً عنه في منهجه الذي يخرج عن المذهب الحنفي، وقد تتلمذ على يدي والد الشيخ الألباني جماعة من أهل العلم منهم الشيخ شعيب الأرناؤوط حفظه الله.

وممن درس عليهم الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في صغره أيضاً:

صديق والده الشيخ محمد سعيد البرهاني، حيث درس عليه كتاب: «مراقي الفلاح» في الفقه الحنفي، وكتاب: «شذور الذهب» في النحو، وبعض كتب البلاغة المعاصرة.

وكان يحضر دروس العلاَّمة محمد بهجة البيطار ـ عالم الشام ـ مع بعض أساتذة المجمع بدمشق.

وكان الشيخ رحمه الله من أول حياته مغرماً بالمطالعة والقراءة، ويستغل كل أوقات فراغه بالقراءة، حيث كان يقول: «في أول عمري قرأت ما يقرأ وما لا يقرأ».

وبعد أن تلقَّى الشيخ رحمه الله تعالى العلم على هؤلاء العلماء الأفاضل، أكرمه الله تعالى بالتوجه لطلب علم الحديث روايةً ودرايةً، وعدم الاكتفاء بالقليل من ذلك العلم، وإنَّما سعى للتبحّر فيه، حتى أصبح مرجعاً لطلبة العلم في هذا العلم الشريف.

وقد حدَّث الشيخ الألباني رحمه الله تعالى عن ذلك قائلاً:

«إنَّ نعم الله عليَّ كثيرة، لا أحصي لها عداً، ولعلَّ من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام، ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات.

أمَّا الأولى: فقد يسَّرت لي تعلم العربية، ولو ظللنا في ألبانية لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً، ولا سبيل إلى كتاب الله تعالى وسنَّة رسول الله ﷺ إلاَّ عن طريق العربية.

وأمَّا الثانية: فقد قيضت لي فراغاً من الوقت، أملؤه بطلب العلم، وأتاحت لي فرصة التردد على المكتبة الظاهرية وغيرها ساعات من كل يوم.

ولو أني لزمت صناعة النجارة التي حاولت التدرب عليها أولاً، لالتهمت وقتي كله، وبالتالي لسدت بوجهي سبل العلم، الذي لا بدَّ لطالبه من التفرغ».

وقد بدأ الشيخ الألباني رحمه الله تعالى طلب علم حديث رسول الله وهو في العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة (المنار) المصرية التي كان يصدرها السيد (محمد رشيد رضا) رحمه الله تعالى.

وقد أشار الشيخ الألباني رحمه الله إلى فضل السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، ومجلته العلمية السيارة الموسومة بمجلة المنار قائلاً:

«فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فإنني ـ بفضل الله عزَّ وجلَّ ـ بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة ثانياً، يعود الفضل في ذلك إلى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله عن طريق أعداد مجلة (المنار) التي وقفت عليها في أول اشتغالي بطلب الحديث».

وقال الشيخ رحمه الله أيضاً:

«أول ما أُولعت بمطالعته من الكتب: القصص العربية كالظاهر وعنترة، والملك سيف، وما إليها... ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية.

وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة (المنار) فاشتريته، ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد يصف فيه كتاب: «الإحياء» للغزالي ـ رحمه الله ـ ويشير إلى محاسنه، ومآخذه، ولأول مرة أواجِه مثل هذا النقد العلمي، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله، ثم أمضي لأتابع موضوع (الإحياء) في (الإحياء) نفسه، وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ العراقي، ورأيتني أسعى لاستئجاره، ولأني لا أملك ثمنه، ومن ثَمَّ أقبلت على قراءة الكتاب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات.

وأحسب أنَّ هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إليَّ المضي في ذلك الطريق، إذ وجدتني أستعين بشتى المؤلفات اللغويَّة والبلاغيَّة، وغريب الحديث لتفهُّم النص إلى جانب تخريجه».

وقد قام الشيخ الألباني رحمه الله بنسخ هذا الكتاب، وهو: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» ورتَّبه ونسَّقه، وهو من أوائل الأعمال الحديثية التي قام بها، وقد بقي مخطوطاً، ويقع في ثلاثة مجلدات، وفي أكثر من ألفي صفحة.

وكان هذا العمل فاتحة خير له، فقد ازداد إقبالاً على علم الحديث، حتى إنَّ والده رحمه الله كان ينكر عليه اشتغاله به قائلاً له: «إنَّ علم الحديث صنعة المفاليس».

وقد أجازه مؤرخ حلب ومحدِّثُها الشيخ (محمد راغب الطباخ) رحمه الله بمروياته، وهي المذكورة في ثبته (الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية).

وكلُّ ذلك شجع الشيخ رحمه الله تعالى على الانكباب على تعلم حديث رسول الله ﷺ بشغف كبير، وهمة عالية، وعزيمة صادقة، وبجِدّ ومثابرة قوية، دراية ورواية، ويسعى لتعليمه وتبليغه، وعلى مدار ثلثي قرن من الزمان، حتى خرج إماماً في السنَّة، إماماً في الحديث.

وفي ذلك قال الشيخ رحمه الله تعالى:

«ومن توفيق الله تعالى وفضله عليَّ أن وجهني منذ أول شبابي إلى تعلم هذه المهنة ـ أي: تصليح الساعات ـ ذلك لأنَّها حرة، لا تتعارض مع جهودي في علم السنَّة، فلقد أعطيت لها من وقتي كل يوم، ما عدا الثلاثاء والجمعة، ثلاث ساعات فقط، وهذا القدر مكّنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعاً، فإنَّ من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً**» رواه الشيخان.

وسائر الوقت أصرفه في سبيل طلب العلم والتأليف، ودراسة كتب الحديث، وبخاصة المخطوطات منها في المكتبة الظاهرية، ولذلك فإنني ألازم هذه المكتبة ملازمة موظفيها لها، ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ست ساعات إلى ثماني ساعات يومياً، على اختلاف النظام الصيفي والشتوي في الدوام.

وأحياناً كان يبقى فيها اثنتي عشرة ساعة، لا يفتر عن المطالعة والتعليق والتحقيق إلاَّ أثناء فترات الصلاة، وكان يتناول طعامه البسيط في كثير من الأحيان فيها، ولهذا قدّرته إدارةُ المكتبة، فخصصت له غرفة خاصة

به... فكان يدخل قبل الموظفين صباحاً، وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهراً ثم لا يعودون، ولكنَّ الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء، فربما يصلي العشاء ثم ينصرف، وإن كل مَن رآه في المكتبة آنذاك يعرف مدى اجتهاده، وحرصه على الاستفادة من وقته».

وقال الأستاذ الرحالة المؤرخ، والنسابة الشهير حمد الجاسر رحمه الله تعالى:

«ولقد عرفت في مدينة دمشق عدداً من أجلة المعنيين بتحقيق التراث... كما عرفت الشيخ ناصر الدين الألباني، بكثرة ترددي على (دار الكتب الظاهرية)، إذْ كان يُعد من أحلاسها، وقد كتب كثيراً من فهارسها، ونقب عن نوادر مخطوطاتها، وفي الوقت نفسه كان يعمل في إصلاح الساعات، له دكان صغير قرب باب الجامع الأموي».

وكان ممَّا أعانه على تحصيل العلم إضافة إلى المكتبة الظاهرية، وجود بعض المكتبات التجارية الخاصة، حيث كان يستعير منها بعض الكتب مثل: مكتبة سليم القصيباتي رحمه الله، والمكتبة العربية لأحمد عبيد رحمه الله.

وكان آخر كتاب عمل فيه الشيخ هو كتاب: «تهذيب صحيح الجامع الصغير والاستدراك عليه» ولقد قال لي أول اشتغاله به: «إنَّ مرضي أقعدني عن الحركة، وإنني أكره أن أجلس بدون عمل، فقد أملى عليَّ مرضي وعجزي هذا المشروع».

وقد كان بروز العلاَّمة الألباني في ميدان الحديث النبوي عظيماً وكبيراً، حتى تفرَّد فيه في هذا الزمان، مما شكره له الخاص والعام، وخرج فيه بثروة علمية حديثية ضخمة، لا غنى لعالم أو طالب علم عنها، ولا أدلَّ على ذلك من موسوعة الأحاديث الفقهية والموسومة بـ:(**إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**)، و(**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها**)، و(**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّيء في الأمة**) وغيرها من تصانيفه.

❑ صبره وجَلَده على دراسة العلم وتصنيفه:

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة من مواقفه التي تدل على جَلَدِهِ في تحصيل العلم وتصنيفه ما يثير العجب، وذلك من خلال مكوثه الساعات الطوال في المكتبة الظاهرية، وأذكر هنا بعض النماذج والأمثلة التي تدل على ذلك:

ما حدَّث به الدكتور محمود الميرة حفظه الله بأنَّ الشيخ ناصراً صعد على السُلَّم في المكتبة الظاهرية ليأخذ كتاباً مخطوطاً، فتناول الكتاب وفتحه، فبقي واقفاً على السلم يقرأ في الكتاب لمدة تزيد على ست ساعات.

وقد بدأ رحمه الله مِنْ مجلة (المنار) للسيد محمد رشيد رضا رحمه الله عندما اطلع فيها على أنَّ الأحاديث حتى تُقبل ويُعمل بها وتصلح للوعظ والإرشاد، يجب أن تكون نسبتها صحيحة واصلة للنبيّ ﷺ بالسند المتصل... بعيدة عن العلل والشذوذ.

ومنذ ذلك اليوم وحتى وفاته لم يقف ساعة عن العمل الذي اختصَّ به من تصحيح وتصنيف كل حديث يمر به، وما أجَّله أو توقف عنده، كان يعود إليه مرات ومرات، وكان من نتيجة ذلك هذا الكم الهائل من صحاح الأحاديث وضعافها، وتنقية السنَّة من كل دخيل ومكذوب.

وقد بلغ الذروة في الصبر والتحمل حينما صام أربعين يوماً متواليات ليلاً ونهاراً عن كل شيء إلاَّ الماء، تطبُّباً وطلباً للشفاء من بعض الأمراض التي كان يعاني منها، بعد أن قرأ كتاباً لأحد الأطباء يشرح فيه كثيراً من الأمراض يُشْفَى منها بالصوم، فكان رحمه الله تعالى يواظب خلال هذه المدة على عمله ودروسه وتأليفه، ويمارس كل النشاط الذي كان يقوم به في الأيام العادية، بما في ذلك الأسفار وإلقاء الدروس والمحاضرات، وإنَّ هذا ـ لعَمْرُ الله ـ قمة في مضاء العزيمة، والصبر على المكاره، وعجيبة من عجائب الدهر.

وما جاء عنه أنَّه لم يفتر عن الجلوس وراء مكتبه للتأليف والتخريج حيث

كان يأتي بالكتب إليه بعض أبنائه وأحفاده إلى آخر خمسين يوماً في عمره الميمون رحمه الله، وذلك لما وَهَنَ بدنه، ونحل جسمه، وضعفت قوّته.

وما ذكره ابنه الفاضل عبداللطيف بن محمد ناصر الدين الألباني: أنَّ الشيخ رحمه الله طلب منه قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من وفاته إحضار كتابه: «صحيح سنن أبي داود» لينظر فيه شيئاً وقع في قلبه، وورد على خاطره.

وما جاء عنه في الوقت الذي ضعفت يده عن كتابة ما يطول كتابته: كان يملي على بعض أبنائه وحفدته ما يخرجه من أحاديث، وبخاصة في سلسلة الأحاديث الضعيفة ثم يكتبون عنه.

وقد شهد له بالتبريز في علم الحديث العديد من علماء العصر:

قال فيه العلاَّمة الكبير عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله تعالى: «لا أعلم تحت الفلك في هذا العصر أعلمَ من الشيخ ناصر في علم الحديث»، ووصفه بأنَّه «مجدد هذا العصر في علوم الحديث»، وقال الشيخ العلاّمة محمد بن صالح العثيمين: «بل هو محدث العصر» ووصفه بـ(أنَّه ذو علم جم في الحديث دراية ورواية).

وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية في حق العلاَّمة الألباني: «وهو واسع الاطلاع في الحديث، قويٌّ في نقدها، والحكم عليها بالصحة والضعف».

ووصفه العلاَّمة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله تعالى: «بأنَّه ذو اطلاع واسع في علم الحديث».

ووصفته مشيخة أهل الحديث في الهند بأنَّه: «أكبر عالم بالأحاديث النبويَّة في هذا العصر».

وقال المحدث الفاضل شارح (سنن النسائي) الشيخ محمد علي آدم الأثيوبي عن الألباني:

«وله اليد الطولى في معرفة الأحاديث تصحيحاً وتضعيفاً، كما تشهد بذلك كتبه القيمة، فقلَّ مَن يدانيه في هذا العصر، الذي ساد فيه الجهل بهذا العلم الشريف».

٤٢ ـ مصطفى الزرقاء

(ت ١٤٢٠هـ)

قُبيل وفاته عُرضت عليه فتوى فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها

(ترجمته بقلم صديقه العلاَّمة يوسف القرضاوي)[١].

ولد الشيخ الزرقاء في مدينة حلب الشهباء ـ في سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م ـ من أسرة علمية دينية عريقة، اشتغلت بالفقه الحنفي، وبرزت فيه.

فجده العلاَّمة الشيخ محمد الزرقاء (ت ١٣٤٣هـ) كان فقيه زمانه، وكان العلماء يأخذون عنه ويقرؤون عليه حاشية ابن عابدين الشهيرة في الفقه الحنفي.

وأمَّا والده فهو العلاَّمة الشيخ أحمد الزرقاء (ت ١٣٥٧هـ) الذي درس الفقه الحنفي درساً، بل حرثه حرثاً وترك لنا فيه أثراً ملموساً هو (شرح قواعد المجلة) وقد نشرها شيخنا مصطفى الزرقاء بتقديمه منذ سنوات، فهو غصن باسق من شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤].

وهذا النسب العريق هو الذي سماه أديب الشام الشيخ علي

---

(١) انظر: كتاب: «في وداع الأعلام» ـ فقيه الأمة العلاَّمة مصطفى الزرقاء ـ ص: ٨٥ ـ ١٠٧.

الطنطاوي: (سلسلة الذهب)! وهو الذي يستطيع الشيخ الزرقاء أن يزهو به ويقول: أولئك آبائي فجئني بمثلهم!

فإن كان من فضل أتوه فإنما تـوارثـه آبـاء آبـائـهـم قـبـلُ!
وهل ينبت الخطي إلاَّ وشيجه وتنبت إلاَّ في مغارسها النخل؟

هذه النشأة الطيبة المتميزة الخصبة، كان لها أثرها في تكوين الشيخ فكراً وسلوكاً، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقد آتاه الله البصيرة النيرة، والعقلية المتفتحة، والذهن اللماح، والذاكرة اللاقطة، والقدرة على الاستنباط والتعليل، والتحليل والموازنة والنقد، مع أناة عرف بها، وغاية في التدقيق، وبراعة في التمحيص والتحقيق، ونفس سمحة تميل إلى التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والتسهيل لا التعقيد، كل هذه كانت مؤهلات لنبوغ الشيخ منذ صباه.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا!

قرأ الشيخ على علماء بلده في حلب، وأولهم والده، وتلقى العلم عنهم على الطريقة القديمة ـ على الحصر والبسط ـ تلقى عنهم التفسير والحديث، والتوحيد والفقه، والأصول والنحو، والصرف والبلاغة، والأدب، وكان من أبرزهم تأثيراً في تكوينه العلمي: والده الشيخ أحمد، والعلاَّمة المؤرخ المحدث العلاَّمة الشيخ محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠هـ)، والعلاَّمة المفسر المتكلم النظار الشيخ محمد الحنفي (ت ١٣٤٢هـ)، وكان من الذين تعلموا في الأزهر، وقرأ على الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر: التوحيد والأصول، كما قرأ للإمام محمد عبده: رسالة التوحيد، وكثيراً من التفسير.

ثم أضاف إلى الدراسة التقليدية: الدراسة النظامية في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، كما درس اللغة الفرنسية في مدارس (الفرير) ليتخذ منها سلاحاً لمعرفة ثقافة العصر.

وقد وطَّن نفسه ـ بعد ذلك ـ على دراسة المقررات المطلوبة لامتحان

شهادة الثانوية هو وصديقه ورفيقه محمد معروف الدواليبي، ودخل الثانوية (شعبة العلوم والآداب) وحصل على الترتيب الأول فيها. كما قدم في دمشق للثانوية: (شعبة الفلسفة) وكان أول الناجحين فيها كذلك، فجمع بذلك بين الدراسة الشرعية والدراسة العصرية.

والتحق بعد ذلك بالجامعة السورية ـ جامعة دمشق بعد ذلك ـ في كليتين معاً: الحقوق والآداب، فكان يحضر الأولى في أول النهار، والثانية في المساء، حتى تخرج منهما بتفوق ملحوظ، فقد حصل على الترتيب الأول كذلك، وبهذا اجتمعت له الثقافات الثلاث: الشرعية، والقانونية، والأدبية.

أعماله الوظيفية:

تولى الشيخ التدريس في المدرسة الخسروية التي تخرَّج منها، كان يدرس فيها: الفقه، والأصول، والآداب، كما شغل مكان والده في المدارس النظامية، وفي درس الجامع الأموي بدمشق.

واشتغل نحو عشر سنوات بالمحاماة ـ بعد تخرجه من الحقوق ـ أمام المحاكم الوطنية، والمحاكم المختلطة (بالفرنسية)، وأكسبه ذلك خبرة بالحياة ومشكلات الناس.

وفي سنة ١٩٤٤م عُيِّن مدرساً للحقوق المدنية والشريعة في كلية الحقوق بدمشق، وظلَّ أستاذاً بها إلى أن بلغ سن التقاعد ١٩٦٦م، وهو رئيس لقسم الشريعة.

وحين أنشئت كلية الشريعة سنة ١٩٥٤م، وكان عميدها الفقيه الداعية الكبير الدكتور مصطفى السباعي كلف بإلقاء عدد من المحاضرات فيها، كما ولّي رئاسة لجنة (موسوعة الفقه الإسلامي) التي عزمت الكلية على تبني مشروعها.

وقد شارك في وضع خطة العمل، وتحديد الهدف، والبدء في الخطوات التمهيدية، واستقراء المصطلحات العنوانية المطلوبة في الموسوعة، وأشرف على إصدار (معجم فقه ابن حزم) وغيره.

وفي سنة ١٩٦٦م اختارته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت ليكون أول خبير لإنشاء الموسوعة الفقهية، وقد بقي خمس سنوات، وضع فيها اللمسات الأولى لعمل الموسوعة، وأصدرت بعض الأعمال التجريبية، عن (الأطعمة) و(الحوالة) وغيرها، وكان التخطيط الأولي: أن تجمع فقه المذاهب الثمانية، ثم رأت الوزارة بعد ذلك الاقتصار على المذاهب الأربعة.

وفي سنة ١٩٧١م، دعته الجامعة الأردنية ليدرس في كلية الشريعة، المدخل الفقهي العام، وغيره من المواد، وظلَّ يدرس ثمانية عشر عاماً.

لقد تخرجت أجيال على يديه، خلال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، نهلت من معينه، واغترفت من بحره، وتعلمت من نهجه، وتأثرت بمشربه، واقتبست من روحه، وسارت في خطه، الذي ينقاد للنقل، ولا يعطل العقل، ويعمل النص، ولا يغفل الواقع، ويستفيد من التراث، ولا يهمل الحاضر، ويوازن بين النص الجزئي والمقصد الكلي.

❑ متى عرفت الشيخ الزرقاء:

عرفت العلاَّمة الشيخ مصطفى الزرقاء أول ما عرفته في صورة له في مجلة (الشهاب) المصرية، التي أصدرها في أواخر حياته الإمام حسن البنا رحمه الله، لينشىء بها ثقافة إسلامية معمقة تخلف مجلة (المنار) التي كان يصدرها العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله.

وكانت المجلة تصدر في آخر كل عدد صفحة أو أكثر، سمَّتْها: سجل التعارف الإسلامي، تشتمل على صور لعدة شخصيات إسلامية من بلاد شتى، ونبذة مركزة عن كل منها، وكان من صور هذا السجل في العدد الأول: صورة للأستاذ الزرقاء، وهو شاب وسيم وقور، يرتدي عمامة بيضاء، وكتبت المجلة عنه: الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقاء من كرام أبناء سورية، ولد سنة ١٣٢٣هـ، وطلب العلم في حلب، وتخرج من كليتها الشرعية، وحصل على الإجازة من كلية الحقوق بالجامعة السورية، وهو

الآن أستاذ الشريعة الإسلامية فيها، وهو باحث قانوني ممتاز، وقد صاغ الفقه الإسلامي بأسلوب عصري، ورتب نظرية الالتزامات في القانون الوضعي في مؤلفه: (الحقوق المدنية)، وله كذلك كتاب: «أحكام الأوقاف» ويدرس الآن في قسم الدكتوراه بجامعة فؤاد الأول، وقد حصل على دبلوم الشريعة الإسلامية بامتياز.

وفي هذا العدد من مجلة (الشهاب) كان للأستاذ الزرقاء مقال بعنوان: العقل العلمي والعقل العامي، كما كتب مقالاً في عدد آخر من أعداد المجلة الخمسة عن العصبية المذهبية.

وقد وجدت فيما كتبه الشيخ الزرقاء حينئذٍ ـ وأنا طالب في المرحلة الثانوية ـ أفكاراً علمية وروحاً تجديدية مع بلاغة وبيان مشرق.

وبعد ذلك قرأت للشيخ الزرقاء بعض مقالات في مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان، مثل مقاله: (العبادة: جوهرها وآفاقها).

كما قرأت للفقيه الضليع، الشهيد عبدالقادر عودة، صاحب كتاب: «التشريع الجنائي الإسلامي» تعريفاً بكتاب الشيخ الزرقاء: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد» أثنى فيه ثناءً عاطراً على الكتاب مما شوقني إليه، وشدني للاطلاع عليه.

وعندما أتيح لي الاطلاع على عمل الشيخ الزرقاء، وجدته جديراً بما قال عنه الأستاذ عودة رحمة الله عليهما.

لقاءاتي مع الشيخ الزرقاء:

وأذكر أنَّ أول لقاء لي مع الشيخ الزرقاء كان في مصر، في عهد الوحدة مع سورية، عرفني به الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر حينئذٍ، وكنت أعمل معه في ذلك الوقت، وكان الشيخ الزرقاء يشارك مع رفقائه الثلاثة في وضع مناهج كلية الشريعة وكلية أصول الدين في الأزهر، وأعني بهم: شيخ الدعاة الدكتور مصطفى السباعي،

والمفكر المربي الأستاذ محمد المبارك، والمفكر السياسي الدكتور الدواليبي.

وكان كتابي: «الحلال والحرام في الإسلام» قد ظهر في طبعته الأولى سنة **١٩٥٩**م، وكنت أرسلت إليه نسخة هدية مني، فقرأه وسرَّ به، وأثنى عليه، وقال كلمته الشهيرة: إنَّ اقتناء هذا الكتاب واجب على كل أسرة مسلمة.

وفي ذلك الوقت ـ من أربعين سنة ـ والمودة بيني وبين شيخنا موصولة، وكلما ظهر لي شيء من الإنتاج العلمي هش له، ورحب به، وحث طلابه على قراءته، مثل: «فقه الزكاة» وغيره من الكتب.

ولقد التقينا بعْد ذلك في مناسبات مختلفة، وفي بلاد شتى: في الكويت، وفي لبنان، وفي تركية، وفي ليبيا، وفي الأردن، وفي المملكة العربية السعودية، وفي أميركا وأوروبا، وفي غيرها في ندوات ومؤتمرات، وكلما لقيته ازددت منه قرباً، وازددت له حباً، وهو يبادلني الشعور نفسه.

لقد كنا نلتقي في (المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي) في مكة المكرمة، وأنا أشترك معه في عضويته، وفي دورات (مجمع الفقه الإسلامي) في جدة، وهو عضو أساسي فيه، وأنا خبير فيه، وفي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وأنا عضو معه فيه، وفي غير ذلك من المناسبات في أقطار عدة، فكنت أحس أنَّه يفرح بلقائي، كما يفرح الظمآن بالماء العذب، يترقبه ثم يجده، وأشهد أني كنت كذلك إذا رأيته، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف.

وقد كان من أدبه وفضله يبعث إلي ببعض الأسئلة في بعض القضايا المهمة التي عرضت عليه، وأجاب فيها، ليعرف رأيي فيها، وهل أقره على إجابته أو لا؟ فهو يطمئن إلى رأيي ويثق به، وهذا تواضع كبير من مثله، وأنا لا أعدو أن أكون من تلاميذه.

وحين جمع أخونا مجد مكي فتاواه لتصدر في كتاب، طلب إليه أن يرسلها إليَّ لأكتب لها مقدمة، والحق أنَّه شرفني بذلك، فما كان مثلي

ليقدم فقيهاً كبيراً في حجم الزرقاء، الذي غدا في هذا العصر فقيه الأمة بحق.

وكان الأخ مجد حفظه الله هو همزة الوصل في المدة الأخيرة بيني وبينه، كما كان ابنه العالم الجليل، والاقتصادي الفقيه، صديقي الحبيب، الدكتور محمد أنس الزرقاء، واسطة بيننا ينقل إليَّ آخر إنجازاته، وآخر تعليقاته فيما يصدر لي.

وكان آخر ما وصلني من الشيخ نسخة من فتاواه أهداها إليَّ بخطه، وطوَّقني بعبارات لا أستحقها، تفضلاً منه، وكان ذلك في ذي الحجة ١٤١٩هـ/ آذار (مارس) ١٩٩٩م.

آثار الأستاذ الزرقاء العلمية:

خلَّف الأستاذ الزرقاء ذكراً حسناً، يملأ الآفاق، وخلَّف تلاميذه في بلدان شتى يشيدون بذكره، ويدعون له، وخلَّف أصدقاء كلهم يكنُّ له أصدق الود، وأعمق الحب.

وخلَّف قبل ذلك كله: آثاراً علمية أصيلة ثمينة، لا تقدر بكنوز الأرض؛ جملة من الكتب النافعة، لا يقدرها قدرها إلاَّ العلماء الراسخون، كلها تنبىء عن فقه مكين، وعلم رصين، ودين متين، وأدب مبين.

من هذه الكتب:

ـ الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد ـ وهي سلسلة ذهبية حقاً ـ صدر منها: المدخل الفقهي العام، وهو دراسة فقهية لا نظير لها فيما صنف السابقون، أو ألف اللاحقون.

ـ المدخل للنظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي، وهو الذي رشح به لجائزة الملك فيصل العالمية، وحصل عليها في عام ١٤٠٤هـ.

ـ أحكام الأوقاف.

ـ العقود المسماة في الفقه الإسلامي: عقد البيع.

- عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية.
- الفعل الضار والضمان فيه.
- صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق.
- عظمة محمد مجمع العظمات البشرية.
- نظـام التأمين.
- الاستصلاح والمصلحة المرسلة في الفقه الإسلامي.
- في الحديث النبوي.
- الفقه الإسلامي ومدارسه (بتكليف من اليونسكو).
- العقل والفهم في السنَّة النبوية.
- فتاوى مصطفى الزرقاء.

تلك هي الثروة النفيسة من الكتب النافعة المانعة، التي جمعت بين أصالة القديم، ونصاعة الجديد، والتي شرقت وغربت، واستفاد منها القاصي والداني في العالم الإسلامي على امتداده، استفاد منها رجال الفقه، ورجال القانون، ورجال الاقتصاد، ورجال السياسة، ورجال الدعوة.

وحسبي هنا أن أنقل سطوراً مما كتبه القاضي الفقيه الشهيد عبدالقادر عودة عن كتابه: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد».

قال: «كان هذا العنوان أمنية فأصبح حقيقة، كان أمنية تهوي إليها النفوس وتهفو إليها القلوب، فأصبح حقيقة ماثلة بين دفتي كتاب يستطيع كل قارىء أن ينالها وأن يستمتع بجمالها.

وقبل هذا الكتاب كان عشاق الفقه الإسلامي يحاولون أن ينالوه فلا يستطيع أن يناله منهم إلاَّ البعض وقليل ما هم، لأنَّ الفقه اعتصم من طالبيه في المتون، وتحصن في الشروح، واستعصى على طلابه في اللغة المغلقة والأسلوب العقيم.

ولقد وقع في يدي كتاب: «المدخل الفقهي العام» فوجدت شيئاً جديداً وعملاً جليلاً؛ فأمَّا أنَّه شيء جديد، فإنَّ الفقه الإسلامي لم يجر رجاله على هذه الطريقة الحديثة التي جرى عليها المؤلف، ولم يأخذوا بذلك التقسيم العصري الذي أخذ به، حيث تؤصل المسائل، وتعرض الكليات، وتبسط النظريات، وتشرح المصطلحات، ثم تستخرج الفروع من أصولها، أو ترد الجزئيات إلى كلياتها، أو تطبق النظريات على موضوعاتها، فيخرج الدارس من دراسته وقد ألمَّ بالكليات والنظريات، وتماسكت في ذهنه المسائل وارتبطت الفروع بالأصول، واستفاد القدرة على حل المشاكل، والتمييز بين المتشابه.

وأمَّا أنَّه عمل جليل فلأنَّه عمل غير مسبوق؛ ولأنَّه يقتضي من صاحبه فهماً وعقلاً وجهداً حتى يصل إلى ما وصل إليه المؤلف من مستوى رفيع، لا يصل إليه عادة إلاَّ النابهون، بعد أن تمهد لهم الطرق ويسبقهم الرواد، فإذا ما وصل المؤلف إلى ما وصل إليه بعد أن شقَّ طريقه في الصخر، وكان الرائد لنفسه ولغيره، فتلك هي العبقرية الفذة، أو هو: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

ولقد ساعد المؤلف على الوصول إلى ما وصل إليه، أنَّه رجل ذو هدف في الحياة، وأنَّه من أصحاب المثل العليا الذين يعملون ويقولون: لوجه الله، فأمده الله جلَّ شأنه بعونه، ورزقه الفهم لدينه وشريعته.

ويلوح أن المؤلف قد عانى من مرارة الاطلاع على كتب الفقه ما عانى، فأخذ على نفسه أن يوطىء الفقه لطلابه، ثم رأى الفقه الإسلامي في ترتيبه وتبويبه، وربط فروعه بأصوله، متأخراً قروناً عن الفقه الحديث، فأخذ على نفسه أن ينقل الفقه الإسلامي عبر هذه القرون الطويلة نقلة واحدة ليلحقه بالفقه الحديث، فوفقه الله إلى ما أراد فوطأ الفقه الإسلامي لكل طالب، ونقله بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسي إلى عصرنا الحديث.

فإذا هذا الفقه الغني القوي الذي كان ملتفاً في ثوبه العتيق القديم يخرج على الناس في ثوبه الجديد فتياً مشرقاً، يزاحم الفقه كله بمنكبيه، ويعلن للناس هو الخير كل الخير للناس لو كانوا يعلمون.

والمؤلف الجليل يعلم وهو يقدم على هذا العمل الجليل: أنَّه يقدم على عمل أجل وأعظم من أن يقوم به فرد، وأنَّ هذا العمل يقضي أن تتعاون عليه جهود جماعة من الأساتذة العلماء المطلعين على الفقه الإسلامي، والحقوق الحديثة في مصادرها وأساليبها الأجنبية، ولكن الحاجة الملحة إلى السرعة ومسابقة الزمن قضت بأن يقدم على حمل هذا العبء الثقيل الذي ينوء بالعصبة أولي القوة مستمداً من الله العون.

ولقد أمده الله بعونه فوفقه إلى أن يخرج كتاباً جامعاً لأصول الفقه الإسلامي، والنظريات العامة التي تبنى عليها الأحكام، في لغة قوية تسيل عذوبة ورقة، وفي تنسيق دقيق وترتيب بديع، وربط للفروع بالأصول، وسلسلة منطقية للنظريات والأحكام، ولقد كان هذا الكتاب أو الكتب التي تنقص المكتبة الإسلامية، وهو يعد وجوده أول الكتب التي ستبنى عليه النهضة الفقهية الإسلامية، فدارس الفقه الإسلامي في حاجة شديدة إلى هذا الكتاب ليعرف الأسس التي يقوم عليها الفقه، ولترتبط في ذهنه بعض هذه الأسس بالبعض الآخر، ويتوجه بعد ذلك في دراسته توجهاً سليماً.

وأهم ما في الكتاب: أنَّ طلبة كلية الحقوق في العالم الإسلامي يستطيعون أن يقرؤوه، فلا يشعرون أنَّهم يقرؤون شيئاً غريباً عليهم، ولا بعيداً عنهم، بل لعلهم سيجدون في قراءته من اللذة العلمية، والتعمق الفقهي، ودقة التعبير اللغوي والاصطلاحي، ما يجعلهم يفضلونه على غيره من كتب القانون التي تترجم لهم ولا تؤلف، بل لعلهم يجدون فيه من الفن والروح ما لم يجدوه في كتاب آخر.

وقد استطاع المؤلف في سهولة ويسر ـ بما وهبه الله من قوة الفهم وعمق الفقه ـ أن يعرض النظريات الإسلامية العامة، كما تعرض النظريات القانونية، وأن يصل كل كلية بفروعها، وأن يستخرج من الفروع كلياتها معتمداً في عمله على المذهب الحنفي، وإن كان يوازن بين حكم الشريعة والقوانين السورية.

ولعلَّ هذا التوفيق الذي لازم المؤلف الجليل الشيخ الزرقاء في إخراج

كتابه يرجع أولاً إلى حسن صلة الشيخ بالله، فما يوفق هذا التوفيق إلاَّ رجل يسدِّد الله خطاه، ويرجع ثانياً إلى ما أفاء الله على الشيخ مصطفى الزرقاء من فضل الجمع بين دراسة الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، وكل ذلك ساعد الشيخ الزرقاء على أن يحلق في هذا الأفق العالي، وأن يقدم للإسلام والمسلمين أجلّ الخدمات بهذا الكتاب القيم.

جزى الله الشيخ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ونفعنا بعلمه وأمده بالقوة وكتب له التوفيق إنَّه سميع مجيب.

وقال الدكتور يوسف القرضاوي في فصل:

❑ (عطاء إلى آخر لحظة):

«ولقد ظلَّ الشيخ طوال عمره المديد الميمون معطاء، لم يتوقف عن العمل، ولم تخب شعلته أو تنطفىء شمعته، حتى توفاه الله، وما كان يشكو إلاَّ من وجع المفاصل، وضعف السمع، الذي استعان عليه بسماعة يضعها في أذنيه، أمَّا ذهنه فقد كان حاضراً لم يغب، وأمَّا ذاكرته فظلت قوية لم تضعف، وأمَّا عزيمته فلم تزل صلبة لم تهن.

أخبرني ابننا العزيز النجيب العالم النابه الشيخ مجد مكي: أنَّه قبيل وفاته بقليل، عرضت عليه فتوى من شركة الراجحي للاستثمار ـ وقد كان مستشاراً لها، ومشرفاً على بحوثها في سنواته الأخيرة ـ فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها الصياغة التي يرضى عنها.

وبقي بعدها ينتظر صلاة العصر، ويسأل عن دخول الوقت، حتى وافاه الأجل، وانتقل إلى رحمة ربه عزَّ وجلَّ».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

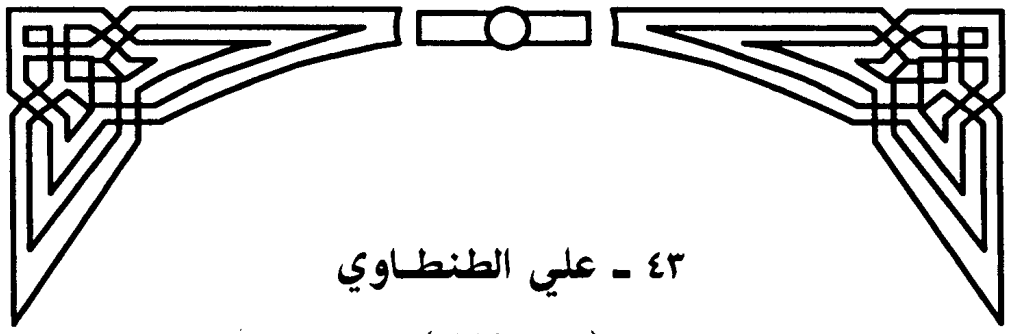

٤٣ ـ علي الطنطاوي

(ت ١٤٢٠هـ)

ربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة فيقول: هي كذلك فنفتح القاموس المحيط فإذا هي كما قال بقي كذلك حتى آخر يوم

(ترجمته بقلم حفيده مجاهد مأمون ديرانية)[١].

١ ـ أصله وأسرته:

«حيث أنَّ لقب جدي هو: «الطنطاوي»، فإنَّ الذي يتبادر إلى الذهن أنَّ أصله من طنطا في مصر، والأمر ـ بالفعل ـ كذلك، فقد نزح جده منها إلى دمشق سنة ١٢٥٥هـ، أي: منذ قرن وثلاثة أرباع القرن، برفقة عمه، وكان عمه هذا عالماً أزهرياً حمل علمه معه إلى ديار الشام حيث جدد فيها العناية بالعلوم العقلية ولا سيما الفلك والرياضيات. تحدث عنه جدي في ذكرياته فقال: «هذا الشاب الذي وصل دمشق سنة ١٢٥٥هـ ولد في طنطا (التي كان اسمها طندتا) وأنا لم أدركه، وكيف؟ وقد مات سنة ١٣٠٦هـ، أي: قبل أن أولد بإحدى وعشرين سنة؟! ما أدركته ولكن سمعت خبره من شيوخ أسرتي، وممن أدركت من تلاميذه، ومن ترجمته في الكتاب القيّم:

(١) انظر: كتاب «علي الطنطاوي أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء»، وهو كتاب حافل لمن أراد المزيد في معرفة حياة هذا العالم الكبير. وقد أبقيت في هذه الترجمة المختصرة على تعليقات حفيده مجاهد مأمون ديرانية. لأهميتها ونفاستها.

«روض البشر» للشيخ عبدالرزاق البيطار، وفي كتاب: «الحدائق» للشيخ عبدالمجيد الخاني ـ وهما تلميذاه ـ وقد جاء في ترجمته: «هو محمد بن مصطفى، الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشافعي مذهباً، وكان فقيهاً عالماً بالعربية والفلسفة والعلوم، ومن آثاره البسيط (وهو آلة فلكية) الموضوع في منارة العروس بالجامع الأموي». ومَن نظر في تراجم علماء الشام في القرن الماضي وجد الكثير منهم قد قرأ عليه وقعد بين يديه»[١].

هكذا كان ابتداء أمر أسرة الطنطاوي في الشام، أمَّا جد جدي (الذي جاء من مصر برفقة عمه الشيخ محمد) فهو أحمد بن علي بن مصطفى، وقد كان إمام طابور متقاعداً في الجيش العثماني، وقد وصفه جدي لنا[٢] فعلمنا من وصفه أنَّه كان نظامياً حريصاً على الترتيب، كل شيء في حياته بحساب؛ المنام والقيام والطعام، فكان طعامه ـ مثلاً ـ في الساعة الثامنة الغروبية، «لا يتقدم عنها ولا يتأخر إلاَّ إذا خرجت الأرض عن مدارها أو أسرعت في مسارها أو غابت الشمس قبل حين غيابها... وطالما كان يولم الولائم يدعو إليها كبار قادة الجيش أو وجهاء البلد، فإذا بلغت الساعة الثامنة باشر الأكل مع مَن حضر، وإن لم يحضر أحدٌ شرع يأكل وحده!»[٣]. قال علي الطنطاوي: «وقد سكن جدي أولاً مع عمه في داره الكبير وتزوج ابنته، لذلك كان أبي يعرِّف نفسه بأنَّه: «سبط الطنطاوي»؛ أي: ابن بنته»[٤].

هذا هو جد جدي، أمَّا أبوه، الشيخ مصطفى الطنطاوي، فقد كان من العلماء المعدودين في الشام، وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وصفه جدي بأنَّه كان «من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المعلمين والمربين»[٥]، وتحدث عنه فقال: «كنت منذ وعيت أجد ـ إذا أصبحت ـ مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي،

---

(١) الذكريات: ١/١٣٣.
(٢) الحديث عنه في: الذكريات: ١/١٤٣.
(٣) الذكريات: ١/١٤٣.
(٤) الذكريات: ١/١٤٤.
(٥) الذكريات: ٢/١١١؛ وتعريف عام، ص: ٥.

فألتقط كلمة لا أفهم معناها ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب»[١].

وكان الشيخ مصطفى مديراً للمدرسة التجارية التي دَرَس فيها جدي ووصفها قائلاً: إنَّها «كانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي والثانوي، مجموع سنوات الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة».

وبعدما ترك مديرية المدرسة ولي منصب رئيس ديوان محكمة النقض عام ١٩١٨م إلى أن توفي في عام ١٩٢٥م، (وكان عمر جدي ـ حينذاك ـ ست عشرة سنة وثلاثة أشهر)، وهو «لم يكن معدوداً رسمياً في قضاء المحكمة، بل كان في رأس سلم المساعدين القضائيين ودون مرتبة المستشارين، ولكنهم كانوا يدعونه إلى كل جلسة تُدرس فيها دعوى مدنية لها صلة بالفقه، فكان يشارك في المناقشات، ويؤخَذ رأيه في الآراء، وكان الحكم يصدر حيث يكون رأيه، سمعت ذلك من كثير من أعضاء المحكمة فيما بعد، كما سمعته من رئيسها يومئذٍ وأنا صغير، وكنت تلميذاً في آخر المرحلة الابتدائية»[٢].

وأسرة أمه أيضاً من الأسر العلمية في الشام، كثير من أفرادها من العلماء المعدودين ولهم تراجم في كتب الرجال، (وقد تحدث جدي عن هذا القسم من أسرته بشيء من التفصيل في الجزء الأول من ذكرياته المنشورة، ص٢٠١ وما بعدها). وخاله، أخو أمه، هو محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتي «الفتح» و«الزهراء» وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع هذا القرن.

٢ ـ نشأته ودراسته:

كان علي الطنطاوي من أوائل الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ والدراسة في المدارس النظامية؛ فقد تعلم في هذه

---

(١) الذكريات: ١/٧١.

(٢) الذكريات: ٨/٣٥.

المدارس إلى أن تخرج في الجامعة، وكان يقرأ معها على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم، وقد عدَّ من مشايخه الذين قرأ عليهم ـ في حاشيةٍ طويلةٍ في أول كتابه: «تعريف عام بدين الإسلام» ـ طائفةً منهم يجاوزون الأربعين.

تلقى دراسته الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالباً في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديراً لها إلى سنة ١٩١٨م، ثم في المدرسة السلطانية الثانية، وبعدها في المدرسة الجمقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣م، حين دخل «مكتب عنبر» الذي كان الثانوية الكاملة الوحيدة في دمشق حينذاك، ومنه نال البكالوريا سنة ١٩٢٨م. لقد عاش جدي في هذه المدرسة ستاً من أغنى سني حياته لم ينسَ أثرها ولم تغِبْ عنه ذكراها إلى آخر أيامه، وها هو ذا يقول عنها: «لقد عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي بالعواطف وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار؛ لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام التي يُرسم فيها المخطط وتُحدد الغرف ويُرسى الأساس»[1].

بعد ذلك ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، وكان أولَ طالب من الشام يؤم مصر للدراسة العالية، ولكنه لم يتم السنة الأولى وعاد إلى دمشق في السنة التالية (١٩٢٩م) فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣م. وقد رأى ـ لمَّا كان في مصر في زيارته تلك لها ـ لجاناً للطلبة لها مشاركة في العمل الشعبي والنضالي، فلما عاد إلى الشام دعا إلى تأليف لجان على تلك الصورة، فأُلفت لجنةٌ للطلبة سُميت: «اللجنة العليا لطلاب سوريا» وانتُخب رئيساً لها وقادها نحواً من ثلاث سنين، وكانت لجنة الطلبة هذه بمثابة اللجنة التنفيذية للكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي للشام، وهي (أي: اللجنة العليا للطلبة) التي كانت تنظم المظاهرات والإضرابات، وهي التي تولت إبطال الانتخابات المزورة سنة ١٩٣١م.

وقد علمتم أنَّ أباه توفي وعمره ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض

(١) في الذكريات حديث طويل عن مكتب عنبر، انظر: ١/١٠٣ ـ ١٣٠، ١٤٩ ـ ١٧٤.

بأعباء أسرةٍ فيها أمٌّ وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم، ومن أجل ذلك فكر في ترك الدراسة واتجه إلى التجارة، ولكنَّ الله صرفه عن هذا الطريق وعاد إلى الدراسة ليكمل طريقه فيها؛ «لقد فقدت أبي وأنا في مطلع الشباب، واضطررت إلى أن أكتسب قبل سن الاكتساب، وتعلمت ودرست على ضيق الحال وقلّة الأسباب، وأكرمني الله فعلمني وكفاني، فما أحوجني أن أمدَّ يدي يوماً إلى أحد ممّن خلق الله»[١].

ثم ماتت أمه وهو في الرابعة والعشرين، فكان تلك واحدة من أكبر الصدمات التي تلقاها في حياته، ولقد شهدتُه مراراً يذكرها ويذكر موتها ـ وقد مضى على موتها أكثر من ستين سنة ـ وأشهد ما كان ذلك إلاَّ وفاضت عيناه، وما أحسبه كتب الفصل الذي وصف فيه موتها في ذكرياته[٢] إلاَّ عاش ذلك اليوم بمرارته وآلامه من وراء حجابِ نصفِ قرنٍ من الزمان:

«وجاء اليوم الأسود، وكان يوم أربعاء أذكره تماماً، وكان في الثاني والعشرين من صفر سنة ١٣٥٠هـ، مرَّ عليه ثلاث وخمسون سنة، ولا تزال ذكراه ماثلة أمام عيني، كأنَّه قد كان أمس... وذهبنا، وكان أستاذ الجراحة الدكتور نظمي القباني حاضراً، فأدخلها إلى غرفة العمليات رأساً ووقفت أنتظر كما يقف المتهم أمام محكمة الجنايات ليسمع الحكم له بالبراءة أو عليه بالموت، وطال وقوفي، وثقلت الدقائق عليَّ حتى لأحسّ طقطقة الساعة الكبيرة على الجدار فوق رأسي كأنَّها مطارق تنزل عليَّ، إلى أن فُتح الباب وخرج الدكتور صبري يقول: لا بدَّ من بتر الساق، فاكتب هنا أنَّك موافق، ولم يدع لي وقتاً للتفكير لأنَّ الأمر ـ كما قال ـ: لا يحتمل التأخير، فكتبت، وأخذ الورقة ودخل، ولبثت مثل المشدوه أفكر كيف تدخل بساقين وتخرج بساق واحدة، وكبر عليَّ الأمر، ونسيت أنَّ بعض الشر أهون من بعض وأنَّ الإنسان يتمنى المصيبة إذا واجه ما هو أكبر منها، لقد تمنيت بتر الساق حين فُتح الباب وظهر الدكتور صبري، ينطق وجهه

(١) الذكريات: ٢٦/٨.
(٢) الذكريات: ١٢٤/٢.

قبل أن ينطق لسانه، يخبر أنَّ أمي لن تخرج بساق ولا بساقين، لن تخرج إلاَّ محمولة على الأعناق... لقد ماتت أمي!». هل أقرأ عليكم بقية المشهد؟ لا، بل اقرؤوه أنتم في الجزء الثاني من الذكريات المنشورة، في الصفحة ١٣١، ولكن لا تفعلوا بغير منديل تمسحون به دموعكم التي لن تملكوا لها حبساً ولا رداً.

٣ ـ في الصحافة:

نشر علي الطنطاوي أول مقالة له في جريدة عامة في عام ١٩٢٦م، وكان في السابعة عشرة من عمره؛ ولهذه المقالة قصة طريفة أترككم معها في السطور التالية: «كتبت مقالاً وقرأته على رفيقي أنور العطار، فأشار عليَّ أن أنشره، فاستكبرت ذلك، فما فتىء يزينه لي حتى لنت له، وغدوت على إدارة «المقتبس» فسلمت على الأستاذ أحمد كرد علي ـ رحمه الله ورحم جريدته ـ ودفعت إليه المقال، فنظر فيه فرأى كلاماً مكتهلاً، ونظر في وجهي فرأى فتًى فطيراً، فعجب أن يكون هذا من هذا، وكأنَّه لم يصدقه فاحتال عليَّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أنَّ المطبعة تحتاج إليه فليس يصحُّ تأخيره، فأنشأته له إنشاء مَن يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني بنشرالمقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبيّ أنظر هل نبت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرت بين النَّاس وكأنِّي أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد وأي كنز سأجد، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه...»[1].

بعد هذه المقالة لم ينقطع علي الطنطاوي عن الصحافة أبداً، فعمل بها في كل فترات حياته ونشر في كثير من الصحف؛ شارك في تحرير مجلتي خاله

(١) من حديث النفس، ص: ١٤٩.

محب الدين الخطيب: «الفتح»، و«الزهراء»، حين زار مصر سنة ١٩٢٦م، ولما عاد إلى الشام ـ في السنة التالية ـ عمل في جريدة «فتى العرب» مع الأديب الكبير معروف الأرناؤوط، ثم في «ألِف باء» مع شيخ الصحافة السورية يوسف العيسى، ثم كان مدير تحرير جريدة «الأيام» التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة ١٩٣١م ورأس تحريرها الأستاذ الكبير عارف النكدي، وله فيها كتابات وطنية كثيرة، وخلال ذلك كان يكتب في: «الناقد» و«الشعب» وسواهما من الصحف. وفي سنة ١٩٣٣م أنشأ الزيات المجلة الكبرى: «الرسالة»، فكان جدي واحداً من كتّابها واستمرَّ فيها عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة ١٩٥٣م. وكتب ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ سنوات في مجلة «المسلمون»، وفي «الأيام» و«النصر»، وحين جاء إلى المملكة نشر في مجلة «الحج» في مكة، وفي جريدة «المدينة»، وأخيراً نشر ذكرياته في «الشرق الأوسط» على مدى نحو من خمس سنين. وله مقالات متناثرة في عشرات من الصحف والمجلات التي كان يعجز ـ هو نفسه ـ عن حصرها وتذكر أسمائها.

وقد بقيت الصحافة أبداً العمل الأثير لديه، قال عنها: «أمَّا من حيث قرب هذه المهنة من نفسي فهي أحب إليَّ من كل مهنة مارستها، ولو خُيِّرت الآن لاخترتها دون سواها، بشرط أن أكون أنا وحدي المشرف على المجلة، وأن أكون حراً لا رأي فوق رأيي ولا مُكرِه لي على نشر ما لا أريده أو طي ما أريده...»[1]. وفي الذكريات المنشورة (الجزء الثاني، الحلقات ٣٥ـ ٣٧) تفصيل ممتع وأخبار كثيرة طريفة مفيدة عن اشتغاله بالصحافة وعن الذين اشتغل معهم فيها، فمَن شاء فليرجع إليها هناك.

٤ ـ في التعليم:

إذا كانت الصحافة هي المهنة التي أحبها علي الطنطاوي، فإنَّ التعليم هو العمل الذي ملأ حياته كلها، لقد كان يقول عن نفسه: إنَّه أقدم المعلمين في الدنيا أو من أقدمهم، وكيف لا يكون كذلك وهو قد بدأ بالتعليم ولمَّا

(١) الذكريات: ٢/٥.

يَزَلْ طالباً في المرحلة الثانوية؟ لقد بدأ بالتدريس في المدارس الأهلية بالشام؛ في الأمينية والجوهرية والكاملية، وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره (في عام ١٣٤٥ هجرية)، وقد طُبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن «بشار بن برد» في كتاب عام ١٩٣٠م (أي: حين كان في الحادية والعشرين من العمر).

بعد ذلك صار معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة ١٩٣١م حين أغلقت السلطات جريدة «الأيام» التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة ١٩٣٥، وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة، فما زال يُنقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، حتى طوّف بأرجاء سوريا جميعاً؛ من أطراف جبل الشيخ جنوباً إلى دير الزور في أقصى الشمال، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يصرفه عن التعليم أو يقعد به عن المضي فيه. اقرؤوا كيف وصف في ذكرياته[1] تنقّله بين المدارس في القرى، في الجبال وفي الحرّات، في أيام القرّ وفي أيام الحرّ، يخوض في الثلوج وينام مع العقارب... صور لو قرأها فتيان اليوم لعجبوا كيف يطيقها إنسان، ولكننا نجده ماضياً بعزيمة وهمّة لا يَني ولا يكِلّ. وهاكم واحدةً من هذه المشاهد العجيبة كما يرويها لنا حين نُقل معلماً إلى قرية رنكوس: «لما نُقلت هذه النقلة كنت في قلب الشتاء، وكنت أستطيع أن أطلب إجازة ولكني لم أقبل الهزيمة، وكانت همة الشباب تملأ جوانحي، فحزمت حقيبتي وركبت إلى صيدنايا، فلما بلغتها وقفت السيارة الكبيرة فيها ونزل منها ركابها، قلت: ولكني أريد الوصول إلى رنكوس، قالوا: مستحيل، قلت: ولِمَ؟ قالوا: الطريق مقطوع قد سدّته الثلوج، قلت لصاحب السيارة: أدفع لك ما تريد فأوصلني، قال: ما عندنا ركاب، فهل تدفع أجر المقاعد كلها؟ قلت: نعم، قالوا: وإن لم نستطع الاستمرار في السير؟ قلت: إن لم تستطيعوا فعودوا والأجرة لكم، وسرنا وسط الثلوج من طريق جبلي خطير،

(١) في آخر الجزء الثاني وأول الثالث.

فلما بلغنا نصفه أو أكثر قليلاً لم يعد بالإمكان أن تتقدم السيارة ذراعاً واحداً، فقلت: عودوا وأنا أمشي، قالوا: كيف تمشي؟ الطريق خطر ولا يخلو من الوحوش، والثلوج كما ترى؟ فأصررت ومشيت، مشيت نحو ساعتين ونصف الساعة، الله وحده يعلم ما قاسيت فيهما، وكان البرد يقص العظم، ووصلت، فسألت: أين المختار؟ فنظروا إليَّ مدهوشين كأنَّهم يرون فيَّ جنياً طلع عليهم، وقالوا: مَن أنت، وكيف جئت؟ قلت: أنا المعلم، وقد جئت ماشياً من نصف طريق صيدنايا، وكانوا رجالاً صلاب العود يقحمون الأهوال، فعجبوا من شاب شامي يبدو في أنظارهم رقيق العود قليل الصمود يفعل ما لا يقدمون على فعله...»[١].

* * *

«...لقد بدأ جدي التعليم مدرّساً في المدارس الابتدائية في القرى، وقد انطلق إلى هذا العمل مشحوناً بحماسة ندر أن نجد لها مثيلاً لدى معلّم صبيان، ولكن طموحه كان أكبر من تعليم صبيان؛ كان ـ أبداً ـ يريد أن يصبّ ما في رأسه من علم أو في جعبته من إبداع حيث عمل ومع أي أناس اشتغل. ها هو ذا يقوّل عن عمله مع تلاميذ المدرسة الابتدائية بقرية سلَميَّة التي علَّم فيها سنة **١٩٣٢**م: «وكنت ـ من حماستي، ومما وجدت من ذكاء التلاميذ وحسن استجابتهم ورغبتهم في الاستفادة والتحصيل ـ أريد أن أجعل منهم كتّاباً وخطباء، وجعلت من دروس التاريخ محاضرات وطنية لا مجرد معرفة بأحداث الماضي...»[٢].

ولمَّا نُقل إلى قرية سقبا (من قرى الغوطة، قرب دمشق) في السنة التالية صار مسؤولاً عن مدرسة ابتدائية فيها أكثر من مئةٍ من التلاميذ، قال: «فأحببت أن أكون لهم كما كان أفاضل أساتذتي لي ولرفاقي؛ لا أجعل عملي كله أن آخذ ما في كتبهم المقررة فأحشو به أدمغتهم وأسجله في

(١) الذكريات: ٣/١٢.

(٢) الذكريات: ٢/٢٢١.

ذاكرتهم، حتى يؤدّوه يوم الامتحان كما تسلموه ساعة الدرس ثم يمحى منها فلا يكاد يبقى منه أثر فيها. هذا الذي تريده مني وزارة المعارف وتكافئني عليه وتقنع به مني، ولكن الله يريد أن أراقبه فيهم وأن أدلهم عليه وأرشدهم إلى ما يرضيه منهم وأجعل منهم أعضاء في جسم الأمة سليمة من العلل قائمة بالعمل، لا أعضاء معتلة ولا مشلولة ولا خاملة. حاولت أن أعودهم على أداء العبادات وعلى إقامة الصلاة، وعلى الصدق في القول والجرأة في الحق، أغرس في قلوبهم الخوف من الله وحده وأنزع منها الخوف من عبيده...»[١]؛ «لقد نصحت لهم ولم أدّخر وسعاً في تقويمهم وتربيتهم. لم أكن معلّماً كالمعلمين، بل كنت مرشداً وناصحاً؛ نبهت الإيمان في قلوبهم الصغيرة، وما قلت: إني غرسته لأنَّ الإيمان مغروس في أعماق كل قلب، وعلمتهم الصدق حتى إنَّ أحدهم يعترف بذنب ارتكبه لم يره عند ارتكابه أحد. وكانت وراء المدرسة قطعة أرض كبيرة تابعة لها مهملة فكلفت التلاميذ انتخاب نفر منهم ليفلحوها ويزرعوها وعلمتهم كيف يكون الانتخاب فانتخبوا بإشرافي. بدأت منهجاً علمياً في التربية وفي التعليم، ولكنهم لم يدعوني أتمه... فانهدّ البناء كله لمَّا تركته»[٢].

بعد ذلك انتقل إلى العراق ـ عام **١٩٣٦**م ـ مدرّساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية (التي صارت كلية الشريعة)، ولكن روحه الوثّابة (التي لم يتركها وراء حين قدم العراق)، وجرأته في الحق (ذلك الطبع الذي لم يفارقه قط) فعلا به في العراق ما فعلاه به في الشام، فما لبث أن نُقل مرة بعد مرة، فعلّم في كركوك في أقصى الشمال وفي البصرة في أقصى الجنوب، وقد تركت تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسَها، وأحب بغداد حتى ألّف فيها كتاباً مما جاء في مقدمة طبعته الثانية التي كتبها عام **١٩٩٠**: «كان إخواننا في العراق يقولون لنا: غداً ستنسوننا وتنسون بغداد، وها أنذا ـ بعد

---

(١) الذكريات: ٢/٢٦٧.

(٢) الذكريات: ٣/١٠.

أكثر من خمسين سنة ـ أتعلل بذكرى العراق، وأثني على العراق؛ ما نسيته، ولا نسيه من إخواننا وأصحابنا الذين كانوا معنا أحد»[١]. وكانت تجربته بالتعليم الثانوي هناك مختلفة عن تجربته بالتعليم الابتدائي في الشام أيما اختلاف، فقد انتقل من تلقين تلاميذ صغار محدودي الإدراك إلى تعليم طلاب كبار يتلهفون للتلقي والتعلّم، فتفجرت قريحته ونثر ذخائر علمه بدون حساب: «أرأيتم الذي يملأ مستودعاته بالبضائع النفيسة والتحف القيمة فلا يجد لها سوقاً إلاّ سوق القرية، ثم تنفتح له الأسواق الكبرى ويُقبل عليه الشَّارون ويزدحم عليه الناس؟ كذلك كنت لما ذهبت إلى العراق؛ كل ما حصَّلته من المطالعات، وما كدَّسته في ذهني من المعلومات، وما اختزنته من أفكار ومشاعر، كان مسدوداً عليه الباب؛ لأنَّه لم يكن أمامي في الشام إلاّ تلاميذ الابتدائية الذي لا يصلح هذا لهم ولا يصلحون ليُلقى عليهم؛ فلمَّا جئت بغداد ووجدت طلاباً مدركين يحبون أن يتعلموا ويستطعيون أن يعوا ويفهموا انطلقت نفسي وأخرجت ما كان فيها، فجئت بأشياء لا يجوز لي أنا أن أتحدث عنها (لأنَّ المرء لا يمدح نفسه) فاسألوا عنها مَن بقي من تلاميذي في تلك الأيام»[٢].

بقي علي الطنطاوي يدرّس في العراق حتى عام **١٩٣٩**م، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرّساً في الكلية الشرعية فيها عام **١٩٣٧**م.

ثم رجع إلى دمشق فعُيِّن أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر (الذي صار يُدعى مدرسة التجهيز، وهي الثانوية الرسمية حينئذٍ بالشام)، ولكنه لم يكفَّ عنه «شغبه» ومواقفه التي تسبب له المتاعب، وكان واحدٌ من هذه المواقف في احتفالٍ أُقيم بذكرى المولد، فما لبث أن جاء الأمر بنقله إلى دير الزور! وهكذا صار معلماً في الدير سنة **١٩٤٠**م، وكان يمكن أن تمضي الأمور

(١) بغداد: مشاهدات وذكريات، ص: ١٥.

(٢) الذكريات: **٢٩٣/٣**، وفي آخر هذا الجزء وأول الذي يليه تفصيل عن الدروس التي كان يلقيها على الطلاب هناك.

على ذلك لولا أنَّ الشيخ مضى في سنَّته ومنهجه في الجرأة والجهر بالحق: «وجاءت عطلة نصف السنة، فقلت: أقضيها في الشام (أي: في دمشق)؛ فأعددت عدة السفر ووضعنا أمتعتنا في السيارة وهممنا بالمسير، ثم رأينا بأنَّه لم يبقَ لموعد الصلاة إلاَّ قليل ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ فاقترحنا أن تقف السيارة بباب المسجد فنصلي ثم نمتطيها ونتوكل على الله، فلما دخلت المسجد جاءني الشيخ حسين السراج ـ رحمه الله ـ فقال: إنَّ القوم يطلبون أن تلقي فيهم خطبة قبل أن تسافر. وكانت باريس قد سقطت في أيدي الألمان والاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم يا شيخ حسين أنني كالقنبلة التي لا يمسكها أن تنطلق إلاَّ مسمار صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقولِ ما لا يناسب المقام، فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ما تشاء؛ فالمجال أمامك فسيح، فألقيت خطبة من تلك الخطب النارية التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس، لا أذكر منها إلاَّ جملة واحدة قلت فيها: «لا تخافوا الفرنسيين فإنَّ أفئدتهم هواء، وبطولتهم ادعاء؛ إنَّ نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نعالُ الألمان»، وكنت أحسب أنَّ النَّاس في الدير مثل إخوانهم في دمشق يخرجون بالمظاهرات يصيحون فيها ويهتفون، ولم أكن أعلم أنَّهم مثل أهل بغداد؛ مظاهراتهم إعصار فيه نار، وزلازل تدمر، وبراكين تنفجر. خرج النَّاس من المسجد يريدون أن يصلوا إلى الفرنسيين فيحطموهم، وجاءت الشرطة والجند ليمسكوا بي لأنَّ المستشار (الكولونيل العسكري) أمر بالقبض عليَّ، ولكن هذه الأمواج من النَّاس الثائرين حالوا بيني وبينهم فقنعوا من الغنيمة بالإياب...

وبعد أيام من وصولي دمشق استدعاني وزير المعارف، ودخلت عليه فاستقبلني مرحّباً وآنسني بالكلام، ثم قال لي: كأنَّ هواء دير الزور لم يوافقك، فهل تحب أن تستريح أياماً؟ فقلت في نفسي: أتجاهل لأعرف ما الذي يريده، فقلت: لا، إنَّ هواء دير الزور وافقني جداً وصحتي بحمد الله صحة حسنة، قال: أرى أن تستريح أياماً بعد هذا السفر الطويل، قلت: لا يا سيدي؛ لا أحتاج إلى راحة وسأرجع في نهاية العطلة النصفية، فقال وقد

نزع عن وجهه القناع: بلا كلام فارغ... ما بدهم إياك (أي: أنَّ المستشار الفرنسي[١] يرفض عودتي إلى الدير، فكان ذلك خيراً أراده الله لي)، قلت: كيف أبقى هنا بلا عمل؟ قال: نمنحك إجازة مرضية، قلت: ولكني لست مريضاً، فضحك وقال: سنختار لك مرضاً ترضاه!»[٢].

في عام ١٩٦٣م قدم جدي إلى الرياض مدرّساً في «الكليات والمعاهد»، (وكان هذا هو الاسم الذي يُطلَق على كلّيَتي الشريعة واللغة العربية، وقد صارت ـ من بعد ـ جامعة الإمام محمد بن سعود)، وفي نهاية السنة عاد إلى دمشق (لإجراء عملية جراحية بسبب حصوة في الكلية) عازماً ألاَّ يعود إلى المملكة في السنة التالية، إلاَّ أنَّ عرضاً بالانتقال إلى مكة للتدريس فيها حمله عَلى التراجع عن هذا القرار.

وهكذا انتقل علي الطنطاوي إلى مكة ليمضي فيها (وفي جدة) خمساً وثلاثين سنة، فأقام في أجياد مجاوراً للحرم إحدى وعشرين سنة (من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٥م)، ثم انتقل إلى العزيزية (في طرف مكة من جهة منى) فسكنها سبع سنوات، ثم إلى جدة فأقام فيها حتى وفاته ـ يرحمه الله ـ في عام ١٩٩٩م.

بدأ جدي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كُلِّف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية، فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرَّغَ للفتوى يجيب عن أسئلة وفتاوى النَّاس في الحرم ـ في مجلسٍ له هناك ـ أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه: «مسائل مشكلات» (في الإذاعة)، و«نور وهداية» (في الرائي)[٣]،

---

(١) وكان هو الوزير الفعلي كما نقرأ في مواضع أخرى من الذكريات، أمّا الوزير الرسمي فصورة بلا فعل ومنصب بلا سلطان.

(٢) الذكريات: ١٥٩/٤.

(٣) بدأ هذا البرنامج نحو عام ١٩٦٧، وكان له ـ قبله ـ برنامجٌ عنوانه: «صور من أمجادنا».

اللذين قُدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة ورائيها.

هذه السنوات الخمس والثلاثون كانت حافلة بالعطاء الفكري للشيخ، ولا سيما في برنامجيه اللذين استقطبا ـ على مرّ السنين ـ ملايين المستمعين والمشاهدين وتعلّقَ بهما النَّاس على اختلاف ميولهم وأعمارهم وأجناسهم وجنسياتهم، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب؛ فلقد كان علي الطنطاوي من أقدم مذيعي العالم العربي، بل لعله من أقدم مذيعي العالم كله؛ فقد بدأ يذيع من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينيات، وأذاع من إذاعة بغداد سنة ١٩٣٧م، ومن إذاعة دمشق من سنة ١٩٤٢م لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة ورائيها نخواً من ربع قرن متصل من الزمان.

هذا العمل ملأ عليه وقته كله خلال تلك السنوات، وقد عشت معه ـ عليه رحمة الله ـ بعضاً من تلك الأيام ما زلت أسترجع ذكراها إلى اليوم. لقد جئت إلى المملكة في مطلع عام ١٩٧٧م لدراسة الهندسة في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وكنت أمضي في نهاية كل أسبوع يومين أو ثلاثة أيام في بيته بمكة فأراه كيف يصنع، كان يُمضي كلَّ يوم ساعاتٍ عاكفاً على أسئلة المستمعين والمشاهدين قراءةً وفرزاً ليختار منها ما يصلح للإجابة؛ وما كان يسعه أن يجيب عن كل سؤال يأتيه لأنَّه كان يستلم من الأسئلة في كل أسبوع مئاتٍ (حقيقة لا مجازاً) ووقتُ البرنامجين لا يكاد يتّسع لغير عشرٍ منها أو عشرين، ثم كان يراجع المسائل في أمهات الكتب ويضع تعليقاتٍ على الأسئلة بخطه في بعض الأحيان، وكان ـ فوق ذلك ـ يتفرغ للإجابة عن أسئلة المستفتين بالهاتف بين العصر والمغرب كل يوم. ولطالما أعلن في الإذاعة والرائي أنَّ ذلك هو الوقت الذي يتلقى فيه الأسئلة ولكنَّ الهاتف كان يرنّ في كل ساعة من ليل أو نهار! فإذا جاء المغرب كان ينطلق إلى الحرم فيجلس في موضعٍ له هناك لا يفارقه بين العشاءين فيأتيه من النَّاس مَن شاء ويسأله مَن شاء، فكان ذلك مجلساً مفتوحاً للعلم والفتوى، فإذا عاد من الحرم بعد العشاء فلا يستقبل أحداً (كما أنَّه لا يستقبل أحداً قبل العصر) ويعود إلى قراءته ومراجعاته وشؤون أهل بيته.

هكذا أمضى جدي تلك السنوات، حتى إذا جاوز الثمانين بدأ جسمه (الذي حمله في مسيرة حياته الطويلة الحافلة) بالتعب، وما عاد يقوى على العمل، فآثر ترك الإذاعة والرائي.

وكان ـ قبل ذلك ـ قد لبث نحو خمس سنين ينشر ذكرياته في الصحف؛ حلقةً كل يوم خميس، فلما صار كذلك وقَفَ نشرَها (وكان قد قاربت مئتين وخمسين حلقة) وودّع القرّاء فقال: «لقد عزمت على أن أطوي أوراقي، وأمسح قلمي، وآوي إلى عزلة فكريَّة كالعزلة الماديَّة التي أعيشها من سنين، فلا أكاد أخرج من بيتي، ولا أكاد ألقى أحداً من رفاقي وصحبي»[1].

ثم أغلق عليه باب بيته واعتزل النَّاس إلاَّ قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين، فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدًى أدبياً وعلمياً تُبحث فيه مسائل العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ. وبات الشيخ ـ في آخر أيامه ـ ينسى بعضاً من شؤون يومه؛ فربما صلَّى الفريضة مرتين يخشى أن يكون نسيها، وربما نسي ما كان في اليوم الذي مضى، ولكنَّ الله أكرمه فحفظ عليه توقد ذهنه ووعاء ذاكرته حتى آخر يوم في حياته، لقد صار أخيراً يتورع عن الفتوى مخافة الزلل والنسيان...».

وكان قبيل وفاته تفتح بين يديه القصيدة لم يرها من عشر سنين أو عشرين فيُتم أبياتَها ويُبين غامضَها، ويُذكَر العلَم فيُترجم له، وربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة أو في معناها فيقول: هي كذلك، فنفتح القاموس المحيط (وهو إلى جواره بقي كذلك حتى آخر يوم) فإذا هي كما قال.

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) الذكريات: ٨/٣٤٠

٤٤ ـ محمد المنونـي

(ت ١٤٢٠هـ)

مات وهو يُدون رحلته الحجازية

ترجم العلاَّمة محمد المنوني لنفسه فقال[١]:

«اسمي: محمد بـن عبدالهادي بـن محمد المنوني.

ووالدتي: السيدة مليكة بنت محمد بـن محمد بـن محمد النسب.

وبلدتي: هي مدينة مكناس؛ مقر عائلتي مدة تزيد على ستة قرون.

وبها كانت ولادتي في الدار رقم: ٤ بالزنقة التي تحمل اسم: «الدرب الضيق» من حي حمام الجديد، ووجدت بخط والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ أنَّ ازديادي كان عند الساعة الرابعة ـ بالتوقيت المحلي ـ بعد فجر يوم السبت ٢٤ شوال عام ١٣٣٣هـ (٤ شتنبرِ ١٩١٥م).

وفي يوم عاشر محرم ١٣٣٨هـ/٥ أكتوبر ١٩١٩م، أدخلني والدي ـ طيَّب الله ثراه ـ إلى الكتّاب الذي كان مقره نفس جامع الحجاج قبالة باب الجنائز من الجامع الكبير بحي حمام الجديد، وأستاذه من المبرزين في حفظ القرآن العزيز، ويتقن قراءة البصري، وهو السيد عبدالسلام بـن

(١) انظر: ترجمته بتوسع في كتاب: «العلاَّمة محمد بـن عبد الهادي المنوني» جمع الشيخ محمد بـن عبدالله آل رشيد.

الهاشمي الفيلالي، المتوفَّى ـ بنفس البلدة ـ ليلة الثلاثاء ١٨ شعبان ١٣٨٢هـ/١٥ يناير ١٩٦٣م، ودفن ـ من غده ـ بصحن ضريح أبي حفص عمرو الحصيني في حي «سيدي عمرو» تغمَّده الله برحمته.

تعلمت على هذا الأستاذ مبادىء الكتابة والقراءة، بدءاً من سورة الفاتحة إلى سورة القيامة أو نحوها، على طريقة الترقي من الفاتحة إلى سورة النَّاس إلى الفلق... حسب الاصطلاح الذي كان جارياً في التعليم القرآني بالكتاتيب.

ثم نقلني والدي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ إلى الكتّاب الواقع في زنقة «تيبربارين» في نفس مسجد هذه الجهة قبل إصلاحه، وأستاذه هو المتقن لحفظ القرآن الكريمْ مع جودة الخط: السيد أحمد بن محمد بن مسعود الملقب بالعظمي، المتوفَّى في شهر ذي الحجة، عام ١٣٤٦هـ/ جوان ١٩٢٨م، رحمه الله رحمةً واسعةً.

وعلى هذا الأستاذ أتممت تعلم القراءة والكتابة، وقرأت عليه من السورة التي انتهيت إليها بالكتاب حتى سورة «طه»، فاستقام خطي، وأخذت أكتب في لوحي ـ يومياً ـ قرابة ثمن الحزب.

إلى أن نقلني والدي ـ رحمه الله ـ إلى كتّاب مسجد «درب صدارته» من حي عقبة الزيادي، وأستاذه هو البارع في حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، المتقن لقراءة «أبي عامر» الخطاط المجيد السيد محمد بن سمية بن الطيب القباب الأندلسي الأصل، والمتوفَّى ليلة يوم الثلاثاء ٢٥ محرم عام ١٣٦٥هـ/ ٣٠ دجنبر ١٩٤٥م، طيَّب الله ثراه.

وقد أخذني هذا الأستاذ بكتابة ثمن الحزب في لوحي يومياً، وبعد ما مررت بالقرآن كله صرت ـ في الدورة الثانية ـ أكتب ربع الحزب ثم نصفه في الدورة الثالثة.

وكان له اهتمام زائد بالتحفيظ، وشدة بالغة على مَن لم يستظهر الحصة اللازمة، إلى احتياط مع المتعلمين في حالة الاستظهار فيستملي كل تلميذ محفوظه على حدة: تارةً في العشي، وحيناً في الصباح، وقد يكرر

العملية في الوقتين معاً ويُشدِّد العقوبة على مَن تلعثم أو تعثر، وبالأحرى إذا لم يحفظ بالمرة، وكان هذا من أسباب تفوق هذا الأستاذ، ووفرة حفاظ القرآن الكريم المتخرجين على يده.

وممَّا أعانه على ذلك انقطاعه للكتّاب الانقطاع التام، فيأتيه من الصباح الباكر وبه يتناول غذاءه، ولا يخرج منه إلاَّ مقدار ما يصلي إماماً ـ نائباً ـ في «جامع الزيتونة» القريب من الكتّاب، ثم يعود ويستمر إلى الغروب، وقليلاً ما كان يتغيب بعد الظهر، إذا ذهب للمشاركة في حفلة «حذقة قرآنية» عند أحد الأساتذة الآخرين، وفي هذه الحالة يستخلف من كبار التلاميذ مَن قد يفوقه في الحرص على أخذ الآخرين بالقراءة والحفظ دون هوادة.

قرأت على هذا الأستاذ القرآن الكريم من سورة «طه»، إلى أن حفظته عليه، وأتقنت قراءته ورسمه برواية «ورش» في ثلاثة دورات، أتممت آخرتها صدر عام ١٣٤٧هـ /١٩٢٨م.

ولمَّا شذوت في الكتّاب، صار والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ يأخذني بحفظ المتون العلمية أيام الأربعاء والخميس وعطل الأعياد، فبدأت ـ بالمنزل ـ في كتابة: «المرشد المعين» لابن عاشر ـ في اللوح ـ إلى أن حفظته، وسرت على هذه الخطة في «الألفية» لابن مالك إلى أن حفظتها، ثم قفيت عليها بجملة متون صغرى ومتوسطة وكبرى، وفيها «الجمل» للمجرادي، و«السلم» للأخضري، و«الاستعارة» للشيخ الطيب ابن كيران، و«المقدمة الصغرى» للسنوسي، وبعض «الأرجوزة العاصمية» و«اللامية الزقاقية»، وأخيراً «المختصر الخليلي» حيث استظهرت منه خمسة أحزاب.

وكان والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ يهتم بتحفيظي تلك المتون اهتماماً زائداً ويحملني على ذلك بالترهيب والترغيب.

وفي أخريات أيامي بالكتّاب بدأت أحضر بعض الدروس في أوقات فراغي، واقتصرت ـ في هذه المرحلة ـ على درسين في الأسبوع كانا بواكر دراستي...

ثم قال: «ولا أنسى هنا أن أذكر مجهود والدي عبدالهادي محمد بن

الحسين ـ أسبغ الله عليه رحمته ورضوانه ـ في تربيتي وتثقيفي، فطالما أفادني إفادات علمية في مجالس خاصة وفي شتى المناسبات، حتى عند معاشرته في الطريق، وعند مرافقته في الأسفار.

وكان له اهتمام خاص بتقويم لساني حين القراءة، وبتعديل يدي في الكتابة ونطقها وشكلها وتجويدها، فضلاً عن عمله لتمريني في الدروس التي أتلقاها من الأساتذة.

وأكثر من هذا إلزامي بحفظ المتون الدراسية لما شذوت في الكتّاب. وكانت العطلة الأسبوعية للكتاتيب تبتدئ من النصف الثاني من أربعاء كل أسبوع، وتستمر يوم الخميس مع النصف الأول من يوم الجمعة، فكان في هذه الأيام وفي عطل الأعياد يأخذني بكتابة حصة أسبوعية في اللوح واستظهارها، بدءاً من «أرجوزة المرشد المعين» لابن عاشر إلى أن حفظتها، ثم سرت على هذه الخطة في «ألفية ابن مالك»، ومتون دراسية صغرى حتى ينتهي بي المطاف إلى «المختصر الخليلي»، فحفظت منه خمسة أحزاب، فضلاً عن استظهار «اللامية الزقاقية» وبعض من «تحفة ابن عاصم»...

وقد كان المترجم مستحضراً لسير الذين عايشهم، مطلعاً على أخبار الماضين التي قرأها في الكتب، فيطرز مجالسه بالطرائف والنوادر في أسلوب تربوي مرح، ونفس طويل يستغرق ـ أحياناً ـ في عروضه على الأسرة، حيث أكون بين يديه أعي ما يقول، مما عاد عليَّ بالفائدة الجلى في مستقبلي.

وفي الليالي الطوال كان يقرأ علينا كتباً منوعة في الأحاديث والأخبار، فكان لمجموعها أثر في غرس الأخلاق الفاضلة في نفسي، كما كان لها أثر في تطلعي لأخبار الماضين من صغري.

ومن عمله في تربيتي: مصاحبتي معه للمجالس العلمية التي كان يحضرها بالجامع الكبير بين العشاءين، فيذهب بي وأنا ابن نحو سبع سنين

إلى مجلس قاضي مكناس المولى أحمد بن المأمون البلغيثي: بين بابي العدول قبالة الصحن من نفس الجامع.

ثم أحضر معه إلى مجلس القاضي الذي خلف سلفه الشيخ محمد بن محمد بن أحمد البركة زويتن المتوفَّى عام ١٣٧٠هـ، وكان يدرِّس «الرسالة القيروانية» في الصف الأول يسرة الداخل من باب الجنائز أسفل النافذة الكبرى هناك.

وبعد ذلك أرافقه إلى مجلس القاضي بعد سلفه في ولايته الأولى: الشيخ محمد بن أحمد بن الشريف العلوي الإسماعيلي، المتوفَّى عام ١٣٦٧هـ /١٩٤٧م، وكان يجلس في نفس الصف يسرة المستقبل للمحراب، مستنداً إلى خزانة المصاحف، ويقرأ «صحيح البخاري».

وإلى الزاوية الكتانية أذهب معه عشية كل جمعة، حيث تجتمع زمرة من المريدين على مقدمتهم الفقيه الهين اللين أحد تلاميذ الفقيه گنون الكبير: الحاج محمد ابن الحاج قاسم الصائغ، المتوفَّى أوائل عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، وكان يحلل للحاضرين بعضاً من الكتب العلمية والأخلاقية، ومنها: «مختصر صحيح مسلم» لابن جزي، ثم «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لجمال الدين القاسمي، ويتدخل في التحليل ـ أحياناً ـ الفقيه الزنطار: مولاي محمد بن عمر العلوي الأمراني، المتوفَّى في ربيع النبوي عام ١٣٥٥هـ /١٩٣٦م.

ومرة في منزلنا ـ أواخر حياة الوالد ـ كانت مناسبة حضر إليها جمع كبير من الفضلاء، وكان بينهم العالم المجاهد: مولاي عبدالسلام بن الفضيل العلوي الإسماعيلي المتوفَّى عام ١٣٦٨هـ، فأخذ في سرد باب من كتاب: «العهود المحمدية» للشعراني ثم يملي عليها إملاءات رأيت فيها ما لم أعهده في محافل الوعظ والتذكير: طلاقة لسان، ووضوح بيان، وقوة حال، ينتزع الاستشهادات تلو الاستشهادات من القرآن والحديث مرات ومرات، كأنَّها على طرف لسانه.

وللزاوية الكتانية أيضاً أذهب معه ـ أحياناً ـ لسماع قراءة «صحيح

البخاري»، وكان ميعاد سرده رجب وتالييه، ويتولى قراءته والمذاكرة حوله ثلاثة شيوخ: بدءاً من العلامة الجليل طيب النغمة أبي علي الحسن بن اليزيد العلوي المحمدي، المتوفَّى بتاريخ ١٢ رجب عام ١٣٧١هـ /١٩٥٢م.

ويقفي إثره الأستاذ العشري الذي كان صوته مزماراً من مزامير آل داود: محمد بن أحمد الحميدي، المتوفَّى في ذي القعدة عام ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م، وأقبر بضريح سيدي زگار، وبعد يسرد ـ في نوبته ـ مقدم الزاوية الفقيه الحاج محمد ابن الحاج قاسم الصائغ آنف الذكر.

ومن الرحلات ـ معه ـ التي أفدت منها: رحلتي الأولى لفاس عام ١٣٤٥هـ /١٩٢٦م، وكان ممن لقيته خلالها السيد الصالح مولاي عبدالرحمٰن الدرقاوي فقدمني له، ودعا لي بخير.

وفي عام ١٣٤٨هـ /١٩٢٩م كانت رحلتي الأولى برفقته إلى الرباط، وفيها رأيت مفتي مراكش مولاي علي العدلوني ودعا لي ـ بدوره ـ بكل خير.

ومن تتمة أخبار المترجم أنَّه كان يشارك في الفقه وأصوله، والعقائد والتصوف والنحو والتصريف، ومبادىء الحساب التي لقنني إياها، كما كان يقرض الشعر، ويخالط التاريخ.

وقرأ على أعلام بلده، المفضلين ابن عزوز والسوسي، ومحمد القصري، ومحمد بن العربي حمود، ومولاي لحسن بن الشريف بن المهدي العلوي الإسماعيلي، والقاضي محمد بن عبدالسلام الطاهري ومحمد بن الحسين العرائشي، والقاضي محمد بن أحمد السوسي، وخاله موقت مكناس محمد السعيد المنوني، وقاضي أحواز مكناس أحمد ابن الحاج يوسف بن أبي بكر بن يوسف الناصري.

وأخذ التصوف عن الشيخ عبدالكبير الكتاني، وولده الشيخ أبي الفيض الذي انتسب لطريقته، وصار آخر عمره مقدمها.

وكان مولده بمكناس عام ١٢٩٤هـ، وبها كانت وفاته عند الساعة

السابعة وخمس وأربعين دقيقة بالتوقيت المحلي، ضحوة يوم الإثنين ٢١ جمادى الآخرة ١٣٥٣هـ/١ أكتوبر ١٩٣٤م.

استمرت دراستي بمكناس إلى أواسط عام ١٣٥٧هـ /١٩٣٨م، وفي نفس العام كانت رحلتي لمتابعة الدراسة بفاس عند أواخر شهري جمادى الآخرة ـ غشت، وهي الفترة التي تستأنف فيها القراءة بكلية القرويين بعد انتهاء العطلة السنوية، وكانت ـ آنذاك ـ لا تتجاوز أربعين يوماً توازي أيام السمائم، مع إضافة استراحة كامل شهر رمضان، ولم تتقرر عطلة ثلاثة أشهر إلاّ عند عام ١٣٦١هـ /١٩٤٢م. وعند دخولي للقرويين كان الطلبة الراحلون لا يزالون أحراراً في الانخراط بالدراسة النظامية، أو يحضرون بالدروس التي يتخيرونها، مع استفادتهم من السكنى والجراية بالمدارس الأربع المخصصة لهم؛ وهي: مدرسة الشراطين، والمدرسة المصباحية، ومدرسة الأندلس، والمدرسة العنانية، ثم أثيرت مسألة تعميم الانخراط في الدراسة النظامية، فعارضها الطلبة الأحرار بشدة، وتطورت الحالة إلى أن أخرجوا من مدارس سكناهم بالقوة؛ ونقلوا إلى محكمة الباشا بالبطحاء، ومنها أخذوا إلى سيارات كبرى أرجعت كل فريق إلى جهته الأصلية، وذلك أواخر صفر ١٣٥٩هـ /١٩٤٠م، وكان عدد هؤلاء المنفيين كثيراً جداً، وبينهم أعداد بارعون في فقه الأحوال الشخصية، وقد أثار هذا التصرف استياءً في داخل المغرب، وفي الخارج نددت به إذاعة برلين.

وفي تاريخ دخولي للقرويين كان مجلسها التحسيني: (إدارة الكلية) يتركب من خمسة مشايخ، رئيس: هو شيخ الجماعة مولاي عبدالله الفضيلي، ومعه عضوان: محمد بن الطيب البدراوي، ومولاي الشريف المومناني التگناوتي، ثم مراقب الدروس العربي بن أحمد الحريشي، وخامساً كاتب المجلس: محمد الزمزمي ابن الشيخ محمد بن جعفر الكتاني.

وفي أواخر ذي القعدة ١٣٥٨هـ/ يناير ١٩٤٠م، أعفي كل من الرئيس والمراقب، وخلفهما الشيخ مولاي مبارك عبدالله العلوي الأمراني رئيساً،

والفقيه أحمد بوستة مراقباً للدروس، والاثنان ـ معاً ـ من كلية ابن يوسف بمراكش، حيث كان الأول: رئيساً، والثاني: مراقباً بها، وكان حلولهما بالقرويين يوم الأحد ٤ ذي الحجة ١٣٥٨هـ /١٥ يناير ١٩٤٠م.

وفي شوال ١٣٦١هـ/ نونبر ١٩٤٢م، أعفي المجلس التحسيني بكامله، ولم يبقَ قاراً به سوى كاتبه الشيخ محمد الزمزمي الكتاني، وألف ـ من جديد ـ هكذا: الشيخ مولاي عبدالله الفضيلي رئيساً، والأستاذ ابن عبدالواحد الفاسي خليفة له وعضو يحمل لقب مدير كلية القرويين، والشيخان: أحمد بن عبدالله الشبيهي، والعربي بن أحمد الحريشي عضوان، والشيخان: محمد بن عبدالسلام الطاهري مراقب فني على الأساتذة، والحبيب بن أحمد بنّن محمد المهاجي مراقب الدروس.

هؤلاء وسابقوهم هم الذين تعاقبوا على إدارة القرويين مدة الخمس سنوات التي قضيتها بهذه الكلية، فكان استعراضهم واقعاً ملحاً لمعرفة الأرضية التي عايشتها أيام مجاورتي بهذه المؤسسة، ومرة أخرى، كان هذا هو الحافز للإشارة إلى واقع الطلبة وبعض أنظمة الكلية.

أول ما حللت بفاس صارت سكناي في مدرسة الصفارين بالحجرة رقم: ٢٩ من الطابق الثاني، وكانت لا تزال في وضع بنايتها المرينية، غير أنَّها كانت على وشك هدمها وإعادة بنائها في شكلها الحالي، فلذلك، لم أستمر بها سوى مدة يسيرة، ونقلت منها إلى مدرسة السبعيين جوار جامع الأندلس، وذلك أول ما فتحت للطلاب بعد إعادة إصلاحها، وكان الذي اختار موضع سكناي بها هو رئيس الكلية المرحوم مولاي عبدالله الفضيلي، وهو حاضر ـ إذ ذاك ـ بالمدرسة، فناولني مفتاح الحجرة رقم: ٢٣ بالطابق الثاني، وقال لي: اكتب للنقيب مولاي عبدالرحمٰن بن زيدان، وقل له: إنني مكنتك من بيت سكناك، بالمدرسة.

وبعد عامين وزيادة انتقلت ـ ضمن طلبة الأقسام العالية ـ إلى المدرسة المحمدية من تأسيس جلالة الملك، المرحوم محمد الخامس، وكانت تمتاز عن بقية المدارس بجدتها، وتجهيز بيوتها بالدورة المائية، غير أنَّه كدر

رونقها وقوعها جوار ضجيج مطارق الصفارين صغراها وكبراها، وكان مسكني بها في الطابق الثاني عند الحجرة رقم: ١٣.

يعلم ممَّا سبق: أنَّ إحرازي على الشهادة النهائية (العالية) من كلية القرويين: كان بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ /٢٨ يونيو ١٩٣٤م، وبعد ذلك بخمسة شهور تقريباً عُينت مدرساً في القسم الابتدائي بالمعهد المكناسي أول افتتاحه الذي كان عند الساعة الثامنة ـ بالتوقيت المحلي ـ صباح الإثنين ٢٣ ذو القعدة ١٣٦٢هـ/٢٢ نونبر ١٩٤٣م.

وكان تعييني صحبة الأساتذة المرحومين: السيد محمد ـ فتحا ـ بن العربي الطاهري، والسيد عبدالله بن (عسيلة) الشبيهي، مع الأساتذة السيد العربي ابن المفتي محمد ـ فتحا ـ السملالي، والسيد الطيب بن عبدالقادر الحريق، والسيد أحمد بن الصديق الديغوسي.

يضاف لهؤلاء ثلاثة في إدارة المعهد، وهم العلماء المرحومين: السيد الحاج المختار ابن الحاج محمد السنتيسي: رئيس.

السيد محمد العربي بن محمد المنوني: مراقب الدروس.

السيد الحاج أحمد بن عبدالسلام بن شقرون: كاتب.

وكانت الدروس التي أقرأتها هي: السيرة والأدب وتاريخ المغرب، مع درس أسبوعي في الإنشاء أحدث بعد ذلك.

وبعد نجاح الفوج الأول في الشهادة الابتدائية بدأ إحداث القسم الثانوي تدريجياً إلى السنة الرابعة، فأحدثت السنة الأولى من الثانوي، وأسند لي تدريس الثمن الأول من «المختصر الخليلي» بشرح الدردير، مضافاً للدروس الابتدائية.

وبعد اكتمال السلك الأول قصرت على الثانوي ابتداءً من عام ٦٥ ـ ١٣٦٦هـ ودرست به: «أدبيات اللغة العربية» في السنة الأولى، و«الوسيط في تاريخ الأدب العربي» بالسنة الثانية، ومعه «الكافي في العروض»، وفي السنة الرابعة «محاضرات» الخضري: قسم «الدولة العباسيَّة».